

القسم الاول

في قارة اسيا وشعوبها ودولها وممالكها وما يتعلق بها

الفصل الاول

في مناخ اسيا وحواسلها وجبالها وحيواناتها

قد ذكرنا فيما سبق ان اسيا هي بلاد متسعة جداً تحتوي على مدن عديدة وشعوب كثيرة وبراير واسعة وتكلم عليها الآن باوضح بيان فنقول

ان هذه القارة واقعة في الجهة الشرقية من الكرة الشرقية والهواء في جنوبها حار جداً وأكثر اراضيها مخصصة بنمو فيها البن والقفل والفسق واللوز والزيتون وقصب السكر والارز والموز والكافور والعود والند وغير ذلك من الاصناف كالرياحين والتوابل والافيون والصبر والازهار البهجة ذوات الروائح الذكية وفي جنوبي هذه القارة مملكة الصين والهند والعجم والترك والعرب

وفي اواسط اسيا جبال شامخة رؤوسها مغمورة بالثلج الدائم وهي من اعلى جبال الدنيا يبلغ ارتفاع بعضها نحو ستة اميال تقريباً . وفي شمال هذه الجبال اراض باردة فيها سهول متسعة واهلها قبائل من التتر يتفلون من مكان الى مكان في طلب المرعى للجمال وخيولهم ومواشيهم . وليس في تلك السهول المنقرة سوى قليل من المدن والقرى وأكثر اهلها يسكنون في الخيام ويقفون من لحوم مواشيهم والبانها ويقتنصون الابل وحمار الوحش وغير ذلك من الحيوانات البرية في تلك النواحي والاقاليم

وفي هذه القارة اجناس كثيرة من الحيوانات التي تستحق الاعتبار كالنمل في الغياض والكركدن على شطوط الانهر والاسد في البراري والسهول والتمر والهد في الاجام . وفيها ايضاً اجناس هائلة يبلغ طولها ثلاثين قدماً او نحو خمس عشرة ذراعاً وانواع كثيرة من السعادين والقرود في الاماكن الحارة وفيها ايضاً الخيول الحسان والجمال والهنج المستظرفة وغيرها من الحيوانات المختلفة لم نذكرها خوف الاطالة وفي الجهات الجنوبية من اسيا تحدث زوايع عظيمة جداً فتقصف الاشجار احياناً . وحياناً تجف الارض وتيبس من قلة المياه فيحدث من جرى ذلك جوع شديد . وحياناً تأتي مع الرياح ربوات عديدة من الجراد تفسد الزرع وتبتلع كل نبات اخضر . وحياناً يأتي الوباء ويهلك الوفاً كثيرة من الناس . اما الآن فقد ضعفت قوة الامراض الوبائية اولاً بسبب اعتناء ولاية الامور بالكورتينا والتدابير الحسنة لحفظ الصحة العامة ثانياً بسبب تقدم الناس في هذا العصر الى درجة سامية من الثمن في المعيشة والرفاهية

فدري ما تقدم ان اسيا هي ارض العجائب والغرائب في تاريخها وجغرافيتها وانها اكبر اقسام الارض . فيها اعلى الجبال واكثر انواع الحيوانات والمحولات وفيها تظهر احسن الفصول وسكانها اكثر عدداً من بقية القارات . وما يزيد بها اعتباراً وشفراً انها هي الارض التي خلق الانسان فيها ومنها امتلأت الارض سكاناً وتفرقت في العالم وفيها حدثت اغرب الحوادث المتعلقة بتاريخ البشر وفيها ايضاً ولد اعجب واعظم الاشخاص الذين عاشوا في هذا العالم وفيها ظهرت الانبياء وانتشرت اكثر المذاهب الدينية وفيها ايضاً صنع الله القدير عجائبه العظيمة . وهي التي ارتقى اهلها في سالف الازمنة الى درجة سامية في الصنائع والمعارف بينما كان باقي اهل العالم تائها في قفر الجهالة والتوحش

الفصل الثاني

في الخليفة والطوفان وتشعب الارض ثانية

كان خلق العالم منذ نحو ستة الاف سنة وتفصيل حديثه مذكور بعبارات رائقة واضحة في الاصحاح الاول من سفر التكوين

اما آدم وحواء فخلقهما الله عز وجل ووضعها في بستان عدن الذي هو في القسم الغربي من اسيا بالقرب من نهر الفرات وقد كانا الشخصين الوحيدين في هذا العالم ولم يكونا يشعران بالوحدة لان الله كان معهما . ثم ولد لهما اولاد وعلى تنادي الايام كثر نسلهما جداً وابنوا لهم قرى ومدناً في تلك الجهات المجاورة للفرات وسكنوها ولكنهم زاغوا اخيراً وارنكبوا الشرور وتركوا عبادة الله حتى امتلأت الارض ظلماً منهم

ولما رأى الله ان شر الانسان قد كثر على الارض وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير قصد اهلاكهم وبادانهم بالطوفان ولم تكن تلك الدينونة التي نزلت بهم قصاصاً لهم فقط بل موعظةً وانذاراً لجميع شعوب الامم في القرون المستقبلية ليعلموا بان الشر والويل يعقبان الخطية

وما يستحق العجب انه لم يكن بين تلك الطوائف المذكورة رجل صالح غير نوح فسر الله ان ينجيه مع عائلته من ذلك البلاء فاعلمه بقصده وامره ان يبني لنفسه فلكاً ليعوم على الماء وان يدخل ذلك الفلك هو وبنوه وامراته ونساء بنيه ويدخل معه ازواجاً من اجناس الحيوانات والطيور لكي يملأوا الارض ثانية بعد اتمام حكمه . ففعل نوح كما امره الله وبعد ان صاروا جميعاً داخل الفلك انفتحت كوى السماء وانفجرت كل يابيع الغمر وغطت

المياه جميع الارض ومات كل ذي جسد كان يدب على الارض من الطيور والبهائم وجميع الناس واما الفلك فكان عائمًا بدون خطر على وجه المياه فهكذا انقطعت جميع الشجوب واندرست واصبحت الارض ثانية بعائلة واحدة من جنسنا البشري . وكان وقوع هذه الحادثة المخيفة بعد المخلقة بالف وست مئة وست وخمسين سنة . وكان حدوث الطوفان على راي الاكثريين في شهر تشرين الثاني وان الامطار كفت في شهر اذار وبعد ذلك جفت المياه وكان الفلك قد استقر على راس جبل عال في بلاد ارمينية يقال له اراراط لم يزل الى يومنا هذا . فخرج حينئذ نوح مع عائلته من الفلك ومنهم تشعبت الارض ثانية . اما الحيوانات ففرقت الى كل الجهات وفي مدة اجيال قليلة ملأت الارض

فانطلق بنو نوح مع عيالهم الى ارض شenaar الواقعة في جنوب جبل اراراط بالقرب من نهري الفرات ودجلة واستوطنوا هناك وكانوا يزدادون يوماً فيوماً حتى انهم في مدة مئة سنة بعد الطوفان صاروا شعباً عظيماً . وكان الى ذاك الوقت لم يزل اكثر اهل بيت نوح احياء فكانوا يخبرون اولادهم كيف طافت المياه وغطت وجه الارض وكيف اهلكت جميع الناس والحيوانات ما عدا الذين التجأوا الى الفلك وكان الذين بلغهم خبر الطوفان يخافون جداً ان يجلب شر البشر عليهم قصاصاً ثانياً نظير ذلك فاجع رايهم على بناء برج عظيم لكي يتجأوا اليه وقت الحاجة ويتخلصوا به من الغرق والهلاك فشرعوا في تأسيسه على شاطئ نهر الفرات الى جهة الشرق واجتهدوا في قامته غاية الاجتهاد حتى رفعوه عن الارض مسافة ليست بقليلة وربما كانوا قاصدين يجهلهم ان يصلوا به الى الجو ومن هناك الى السماء ولكن مع كل اجتهادهم وتقدمهم في البناء كانت الشمس والنجوم لا تزال بعيدة عنهم كبعدهم عنها عند بداية مشروعهم في هذا العمل

فاتفق ذات يوم انه بينما كان هؤلاء الجهلة منهمكين في ذلك حدث

امر عجب يستحق الذكر وهو ان الله سبحانه وتعالى بلبل الستم حتى لم يعد
 بينهم احد هم كلام الآخر ومن الاختلاف في الفهم نتج الاختلاف في الاراء بين
 الروساء والمرؤسين

فهذه الحادثة العجيبة اقلقتهم وشوشت افكارهم حتى اضطروا ان يكونوا
 عن بناء البرج والصعود الى السماء . ولما خاب املمهم وحبط عملهم تأسفوا
 غابة الاسف على عدم نجاحهم وعزموا على الانتقال من هناك الى الجولان في اقطار
 العالم . والمظنون ان كل فرقة منهم من كانت تتكلم بلغة واحدة تجمعت
 وانضم بعضها الى البعض وذهبت الى جهة معلومة من الارض . ودعي
 اسم ذلك البرج برج بابل الى يومنا هذا

وقد سبق القول ان الارض تشعبت بعد الطوفان باولاد نوح وهم سام
 وحام ويافت . وكان ليافت هذا سبعة بنين

الاول جومر وهو الذي هاجر الى الشاطي الشمالي من البحر الاسود ومن ثم
 تفرق نسله غرباً وسكنوا في الجنوب الغربي من اوروبا وفي جزائر بريطانيا
 واكثر الاوروبيين من نسله . وقد كان لجومر ثلاثة بنين الاول اشكانز ومحلة
 الشاطي الجنوبي من البحر الاسود . الثاني ريفاث ومحلة شرقي اشكانز . الثالث
 تجرمة ومحلة الجانب الشرقي من ريفاث

الثاني ماجوج ومحلة بلاد التراري الشاطي الشمالي من بحر الخزر واكثر
 سكان اواسط اسيا من نسله كالمغول . الثالث ماداي ومحلة شمالي بلاد العجم .
 الرابع ياوان ومحلة بلاد اليونان وباسم سى دانيال النبي اهالي هذه البلاد .
 وكان لياوان هذا اربعة بنين الاول اليشة ومحلة هلاس وهي الولاية الجنوبية
 الغربية من بلاد اليونان . الثاني ترشيش ومحلة كيليكيا في اسيا الصغرى في
 الاناضول وباسم سيمت مدينة ترسيس وذهب بعضهم الى ان من نسله من
 سكن ايضاً في بلاد اسبانيا . الثالث كيم ومكانة عند شطوط بحر ايطاليا
 وبلاد اليونان . الرابع دودانيم ومكانة البانيا اي بلاد الارناوط جنوباً من

مدينة ترسته ويطن ايضاً انه سكن في نواحي مرسيليا في جنوب فرنسا .
الخامس نوبال ومحلة مجوار ماجوج وبين البحر الاسود وبحر الخزر . السادس
ماشك ومسكنه في جوار نوبال وماجوج وقد سكن بعض نسله على شواطئ
بحر البليتك ومنه تسلسل بعض المسكوبيين . السابع تيراس ولا يعلم محل
سكنه والمظنون ان نصف اهل الارض من نسل يافث

واما حام فكان له اربعة بنين . الاول كوش وكان له ستة بنين ومحلة
غربي بلاد العرب وقد سكن اكثر نسله افريقيا ومنهم من سكن عند الشطوط
الشمالية من خليج العجم وامتد شمالاً الى ما بين النهرين . ويظن ان اكثر اهالي
افريقيا من نسله لانهم كانوا ينسبون اليه وان بنيه جميعاً سكنوا بلاد العرب
وافريقيا ما عدا نمرود فانه سكن على الفرات وهو الذي اسس مدينة بابل .
الثاني مصرام ومحلة مصر ولذلك سميت مصر نسبة اليه وقد تفرع منه سبع
قبائل الاولى اوديم ومحلها غربي مصر . الثانية عنانيم وهذه كانت من القبائل
الرُّحَل . الثالثة لهايم سكنت جنوبي اوديم . الرابعة نفتوحيم ومحلها على شاطئ
البحر في الجهة الغربية من مصر والمظنون ان نبتون (اله البحر عند الاقدمين)
ماخوذ منها . الخامسة قنروسم ومحلها مصر العليا . السادسة كسلوجيم ومحلها
بين مصر وارض كنعان على شط البحر ومنها الفلسطينيون . السابعة كفتوريم ومحلها
جزيرة قبرس . الثالث فوط وقد سكن شمالي افريقيا ونسله مذكور مع كوش
ولود . الرابع كنعان ومحلة الارض المنسوبة اليه وهي هذه البلاد . وكان له اثنان
الاول صيدون وهو الذي بنى المدينة المدعوة باسمه اي صيدا ويظن انها اقدم
مدن العالم . والثاني حث . وقد خرج منه غير هذين الولدين تسع قبائل سكنت
ارض كنعان الى ايام يشوع بن نون

واما سام فكان له خمسة بنين . الاول عيلام ومحلة جنوبي بلاد العجم . الثاني
اشور ومنه الاشوريون الذين كانوا مستعبدين لنمرود وكوش . الثالث ارفكشاد
وقد توطن بين النهرين ومن نسله خرج ابراهيم خليل الله . وكان له ولد وهو

شالح الذي ولد عابر المأخوذ منه اسم العبرانيين وله فاتح وبفطان وكان
 لبفطان اخي فاتح ثلثة عشر ولداً منهم قبائل بلاد العرب المخصبة وسكن
 الاسماعيليون بينهم . الرابع لود ومثله اللوديون ومحلهم بر الاناضول . الخامس
 ارام ومحلة بين النهرين ولذلك سميت هذه الارض سهل ارام وكان له اربعة بنين .
 الاول عوص ومحلة عند راس خليج العجم . الثاني حول ومحلة عند مخرج نهر
 الاردن حيث يدعى باسمه . الرابع ماش وقد سكن الاناضول ايضاً
 فبنين لنا ما تقدم ان اكثر اهالي اوروبا وشالي اسيا ايضاً من نسل
 يافث وان اهل اواسط اسيا من نسل سام واما اكثر اهالي افريقيا فن من نسل حام .
 واما بلاد اميركا وجزائر البحر فقد عمرت من اسيا وافريقيا بانتقال بعض
 الناس اليها وتوطنهم بها مارتن بيوغار يدين الذي يظن انه كان برزخاً
 وقد اكتشف بعض السياح المتأخرين على شاطئ الفرات ثلثة كبيرة من
 اللبن مجبولاً بالحبر مجففاً بالشمس والارجح ان هذه الثلثة من آثار خراب برج
 بابل الذي شرع به اولئك القوم بينوته من نحو اربعة الاف سنة

الفصل الثالث

في ملكة اشور

الباب الاول

في نينوى وبابل

اشتهرت هذه الدولة بالدولة الاشورية نسبة الى اشور بن سام بن نوح
 اول ملوكها وكان من امرها انه عند تفرق الناس في العالم كما سبقت

الاشارة استوطن منهم جماعة في بلاد شنغار بالقرب من برج بابل وتمكنوا فيها وكانت حارة الهواء ومخصصة التربة فكسوها بالمدن والقرى . ولما حسنت احوالهم وانتظمت امورهم اتخذوا واربطوا معاً وصاروا امةً مستقلة وكانت اول مملكة في العالم . وكان موقعها شرقي الدجلة مجدها شمالاً بلاد الارمن وغرباً ما بين النهرين وشرقاً بلاد مادي وجنوباً بابلونيا وكانت وقتئذٍ منفصلة عن مملكة اشور . واول ملوك هذه الدولة اشور المذكور وباسمه دُعيت البلاد كما مر . وكان ملكاً مقتدرًا ذا شوكة عظيمة وهو الذي بنى مدينة نينوى سنة ٢٢٢٩ ق م وبنى لها سوراً منيعاً بلغ ارتفاعه ٥٠ ذراعاً واقام لوقائنها وصيانتها خمسة عشر برجاً علو كل منها مئة ذراع . قبل ان المدينة كانت كبيرة متسعة حتى لم يكن احد يستطيع ان يدور حولها ماشياً باقل من ثلاثين ساعة . وقد اكتشف احد السياح مؤخراً بين خرائبها بعض عاديّات مردومة ونصاوير منقوشة ومرسومة على التماثيل والاحجار فنقلت بعضها الى بلاد الانكليز وبعضها الى فرنسا وغيرها من البلاد الاوروبية

واما بابل عاصمة بابلونيا فهي مدينة كبيرة شهيرة اعظم من نينوى اتساعاً واجملها رونقاً وحسناً بناها نمرود حفيد حام اي الابن السادس لكوش ابن حام الذي كان معاصراً لاشور المذكور . وكانت هذه المدينة قائمة في وسط سهلٍ فسيحٍ وارضٍ مخصبة جداً يجرها نهر الفرات جارياً في وسطها من الشمال الى الجنوب . ويحيط بها سوران عظيمان يبلغ محيطهما ستين ميلاً وعرضهما سبعاً وثمانين قدماً بحيث تجري فوقهما ست مركبات صفّاً واحداً وارتفاعهما ثلثاية وخمسين قدماً وكان لها مئة باب من نحاس من كل جهة خمسة وعشرون باباً وكان لها ايضاً خمس وعشرون سوقاً تمر من جانب الى جانب شرقاً وغرباً وكذا شمالاً وجنوباً اي سوق ممتدة من كل باب الى ما يقابله في الجهة المقابلة وانقسمت المدينة بهذه الاسواق الى ٦٧٦ مربعاً بنيت البيوت حولها وفي وسطها احسن البساتين والمنتزهات . وكان في وسطها هيكل بعل اله الاشوريين بته

الملكة سميرامس الآتي ذكرها واقامت فيه تمثالا من ذهب للصنم المذكور
 علوه ٤٠ قدما وكان من اعظم الهياكل واعلى من كل ما بناه البشر يبلغ
 ارتفاعه ٦٦٠ قدما وهو اعلى من اعظم الاهرام المصرية وقد وصفه هيرودوتس
 المؤرخ اليوناني فقال انه كان مربع الشكل ومساحته من كل الجهات ٤٠٠
 ذراع وفي وسطه برج عظيم يبلغ ارتفاعه سفاية قدم . ويعلو هذا البرج سبعة
 ابراج علو كل واحد منها ٧٥ قدما . وكان في البرج الاخير مسجد فيه مائة
 من ذهب وفي البرج الاسفل مسجد آخر فيه تمثال من ذهب وبشره مائة
 وكربي من ذهب يساوي ثمنها نحو ٢٢٥ مليوناً من الفروش وكان خارج هذا
 المسجد مذبحان احدهما من ذهب يقدمون عليه الذبائح وهي من اناث الحيوانات
 واما الاخر فكان عظيمًا جدًا قد اعدوه لتقديم الذبائح المعتادة . وكانوا
 يوقدون عليه كل سنة في عيد الاله المذكور ٢٠٠٠ افة بخور

الباب الثاني

في اخبار الملكة سميرامس

وكانت الملكة سميرامس المقدم ذكرها زوجة الملك نينوس الذي كان
 قد انفرد باحكام ملكة اشور واستولى على جميع الممالك الواقعة بين نهر
 الهند والبحر المتوسط فنزلت على الملكة بعد وفاة زوجها وبذلت الهبة في تحسين
 مدينة بابل وترميمها فاقامت فيها الابنية العظيمة والهياكل المتظمة وانشأت
 القصور والبساتين والثرع والتناظر وغير ذلك من المباني المزخرفة والمنتهزات
 البهجة

ومن العجائب ان هذه الملكة لم تكف بما كانت عليه من العظمة والجاه
 وطيب العيش بل اهاجها الطمع الى الاستيلاء على باقي ممالك الدنيا فجمعت
 جيشا عظيما وزحفت به على بلاد هندستان في الجنوب الشرقي من ملكة اشور



«سبع اشوري براس انسان واجنحة طائر دلالة على القوة والمعرفة في مملكة

اشور

بعد ان كانت قد استظهرت على بلاد مصر والحشة واستولت على جميع مدن فلسطين

وكان ملك الهند يومئذ رجلاً غنياً مقتدرًا فلما بلغه قدوم الملكة سيراكس لافتتاح بلاده تأثر من ذلك فجمع جيشاً جراراً وحصن القلاع بالعساكر والجنود واستعد لدفعها . وكان عنده افيال كثيرة قد نرست من صغرها على الهجوم في معارك الحرب والدخول بين صفوف الاعداء فكانت تلقي بمخراطيمها الابطال وتدوسهم بارجلها . ولما اشرفت الملكة سيراكس على مدينة ملك الهند وبلغها خبر تلك الافيال ارتابت وخافت من انتصار الهنود عليها واذ لم يكن عندها قوة تضاهيها اجهدت ان تدفع عنها هذه البلية بطريقة احتيالية فامرت قواد العسكر بذبح ثلاثة الاف بقرة من ذوات اللون الاسمر وان يسلقوها ويفصلوا جلودها على هيئة الافيال ويلبسوها للجمال فامتثلوا ما امرت وفعلوا كما ذكرت وعلى هذه الصورة انزلتها الى ميدان الحرب لتلقي الرعب في قلوب الاعداء باظهارها لم استعداداتها الحربية وشوكها القوية . فلما انتشب القتال بين الفريقين انعطفت ملك الهند بافياله الحقيقية على عساكر الاشوريين وتقدمت الملكة سيراكس بجيهاها وفرسانها وجلود ثيرانها ولما اقترب العسكران والتى الجيشتان انكشفت للهنود تلك الحيلة وتحقق عندهم انه لا يوجد عند الاعداء افيال كافيالهم وان كل ما يرى انما هو حيلة وخداع فتشجعوا وهجموا على صفوف الاشوريين هجمة هائلة فالتفتهم الملكة سيراكس برجالها وابطالها فاشتد القتال وعظمت الاهوال ودخلت افيال الهنود بين صفوف الاشوريين فكانت تخطف الرجال عن خيولها وتدوسها فمابست الجمال المصنعة الى ان ولت الادبار وطلبت النجاة والفرار ولم تكن الا برهة يسيرة حتى انكسر جيش الاشوريين وتفرق وتشتت شتلة وانتصرت الهنود انتصاراً عظيماً وكسبت غنائم جسيمة وكانت الملكة سيراكس قد جرحت جرحاً عميقاً ولكنها فازت بالهزيمة بسبب خفة فرسها ورجعت الى بلادها بالخيبة بعد تلك السطوة والهيبة وقاعدت

عن الحروب ولكنها لم تلتذ فيها بعد بمنزلاتها وبساتينها التي كانت قد انشأتها
لنفسها وذلك لنصر مدتها لانها لم تلبث الا زمناً يسيراً حتى قتلها ولدها نيناس
على ما قيل وتولى مكانها وهكذا انقضت حياة هذه المملكة العظيمة التي كان
داها الغزو والحروب طمعاً بالفتوحات والغنائم عوضاً عن ان تصرف مدتها
في تنظيم مملكتها ونجاح امنها

الباب الثالث

في ذكر الملك نيناس وولاية الملك سردنقول
وخراب مملكة اشور الاولى

ولما قتل نيناس امه كما تقدم جلس على سرير المملكة وتقلد زمام الاحكام
وكان جلوسه قبل المسيح بالفي سنة او ٢٥٠ بعد الطوفان وكان رجلاً شريفاً
قيماً ذمياً فاتراهمة ضعيف الرأي يميل الى الكسل والانفراد لا يلتفت الى
الحكومة ولم يكثرث بحفظ ناموس السلطنة بل صرف زمانه داخل قصره في
اللذات والشهوات ففقت الشعب وردلوه واحقره وتكلموا فيه كلاماً قبيحاً واذ
كان لا يجهل ما تقول الناس عليه حاذر على نفسه من الغدر والخيانة فاقام
حراساً على ابوابه للمحافظة عليه ولا نعلم بالحقيقة كيف انتهت ايامه لان التاريخ
لا يفيدنا من ذلك شيئاً

ثم مضى على ذلك مدة ثمانية سنة لا نعلم ماذا جرى في مملكة اشور فان
المؤرخين لم يذكروا شيئاً من اخبارها ولذلك ضربنا عنها صفحاً والمظنون ان
اكثر ملوكها الذين استولوا عليها في اثناء هذه المدة ليس لهم مآثر ولا فضائل بل
كانوا اشبه بنيناس بصرغون اوقانهم بالملاهي والردائل ولم يكن لهم من الشهرة
ما يستحق الذكر

وتبرأ بعد ذلك سربر حكمة اشور الملك سردنقول فكان شاباً جميلاً
ولكنه كان متواثماً مهاناً لا يبالي بأمر المملكة ولا يهتم بنجاح الشعب وكان يقضي
ايامه وليلاته في السكر واللذات ويتسلى بجمالة النساء والمحادثة معهن ويتخلق
بأخلاقهن ومن غريب اعماله انه كان يتزى بلبسهن في أكثر الاحيان وبهذه
الصفة المضحكة كان مجلس نينوى ويساعدهن في الغزل فصار مردولاً
ومُبغضاً عند أكثر الناس ولهذا اعتمد رئيسان من اكابر قواده ان يهدما سلطته
ويستوليا على مملكته وهما ارباسيس رئيس عسكر بلاد مادي التي كانت يومئذ
من جملة الولايات التابعة لمملكة اشور وبيليزيس قائد جيوش مدينة بابل
وما يليها فاشهرا راية العصيان وجمعا اربعين الف مقاتل وهجما على مدينة
نينوى واقاما عليه حرباً وحاصراه اشد الحصار حتى لم يمكنه الفرار فلما يئس
من السلامة ولم ير لنفسه وجهاً للهزيمة داخله الخوف وعلم انه اذا بقي في قيد
الحياة ربما يؤخذ اسيراً ويصير عبداً فلم يسعه الا ان جمع خزائن اماله وما
ملكته يده من الذخائر في
قاعة كبيرة وجعلها كومة واحدة
واضرم فيها النار فاحترقت به
مع كل من كان في القصر من
محافظيه ونسائه وشراريه . وكان
حدوث هذه الواقعة الهائلة سنة



٧٦٠ ق م

عسكري اشوري مدرع

وهكذا انتهت مملكة اشور الاولى واقتسمها المشركان في هذه الدسيسة
فقتل ارباسيس المذكور زمام بلاد مادي ونسي عليها ملكاً مستقلاً . واستولى
بيليزيس على مدينة بابل وسي ملكاً عليها الى سنة ٧٤٧ ق م
وكان لسردنقول ولد اسمه فول فلم يبق له من مملكة اشور سوى مدينة

نينوى فجلس عليها ملكاً من سنة ٧٥٩ الى سنة ٧٤٢ وهو الذي اقام حرباً على الاسرائيليين في ايام منحم احد ملوك اسرائيل واخذ منه الف وزنة من الفضة حتى رجع عنه . وخلف الملك قول على نينوى ابنة ثعلث فلاصر من سنة ٧٤٢ الى سنة ٧٢٤ وكان شجاعاً مرهوباً ظافراً في حروبه ومغازيه ولا سيما في وقائعه مع ملوك سورية واسرائيل . وهو الذي انتصر الملك آحاز بن يوثام من ملوك يهوذا وامدة بالساكر والمهمات على قتال الاراميين وافتتح دمشق وسبي اهلها

الباب الرابع

في ذكر بعض مشاهير ملوك اشور

^١ وخلف ثعلث فلاصر المذكور ابنة شلناصر سنة ٧٢٤ قبل المسيح . وكان جباراً متندراً فاقام حرباً على ملوك سورية وحاصر مدينة صور زمناً طويلاً وعجز عن الاستيلاء عليها . وله دفع هوشع ملك اسرائيل الجزية . وهو الذي سبي عشرة اسباط اسرائيل الى اشور واتى بقوم من اهل مابكتيه واسكنهم مدن السامرة والهم اتسبت طائفة السيرة

وخلف شلناصر ابنة سنخاريب سنة ٧١٢ قبل المسيح وسلك مسلك ابيه في المغازي والحروب المتتابعة فحارب اليهود وانتصر على ملوك مصر والحبشة وخرّب مدنها ونهبها مدة ثلاث سنين واتى منها بغنائم عظيمة واموال جسيمة ثم حاصر القدس في ايام الملك حزقيا وتهدد شعب اليهود وضايقهم فارسل الرب ملاكه ليلاً وقتل من جيشه ١٨٥ ٠٠٠ رجل فارند راجعاً الى بلادهم مهزوماً مقهوراً وعند وصوله الى نينوى بنى ابنة جديدة واتّنها . وانفق انه بينما كان ذات يوم ساجداً في هيكله امام الالهة دخل اثنان من اولاده

وقتلاه . ولكن لم نجعل هذا العمل فانها التزما ان يهربا الى بلاد ارمينيا
ويتركا الملك لاختيها اسرحدون . وقد اكتشف العلامة الحاذق مسترلابرد
الانكليزي في هذه الايام صورة سخاريب الملك مع بعض القائل وصور
اخرى بين خرب مدينة نينوى وهي الان في قصر الآثار القديمة في مدينة
لندن . ويقال ان الصورة المنقوشة على الصخرة تجاه نهر الكلب شرقي بيروت
هي صورته

ثم استقل بالملك بعده ابنه اسرحدون المذكور من سنة ٧٠٢ الى سنة ٦٦٧ ق م
وفي سنة ٦٨٠ استولى اسرحدون على بابل وتسلط على جميع اقاليمها ولما قويت
شوكته جهز جيشاً عظيماً وزحف به الى سورية فحارب ملوكها نظير اسلافه
وقهرهم وادخلهم تحت الطاعة والافتاد ثم سار الى فلسطين فاسر الملك منسى بن
حرقيا وارسل قوماً من اهل بلاده للاقامة في مدن السامرة . ومن اشهر ملوك بابل
الملك نبوخذنصر الاول نبوأ سرير الملك سنة ٦٠٥ ق م وكان ملكاً عظيماً
ذا قوة وشوكة وثروة جسيمة ولم يكن دابة الا توسيع ملكته بالتجارات
والانتصارات وقد بلغ من درجة المجد والفخار مبلغاً عظيماً وهو الذي استظهر
على بلاد اليهودية وافتتح مدينة القدس واسر يهوياكيم ملك يهوذا وسبي كل
شعب اليهود مع ملكهم صدقيا بعد ما قلع عينيه واحرق المدينة بالنار . وكان
قد افتتح مدينة صور بعد حصار ثلاث عشرة سنة واخضعها ثم سار الى مصر
وغلبها واخذ منها غنائم وافرة استخدمها في تحصين بابل وضرب على اهلها
خراجاً معلوماً يدفعونه كل سنة ووضع عليها النواب والعمال . ولما رأى ذاته
مكلاً بنجاح لا مزيد عليه اغتر بشوكته وعظمته فبغى وتجر وطغى وتكبر ونظم
نفسه في سالك الآلهة وطلب من الشعب ان يعبدوه ويسجدوا لثنائه الذهبي الذي
اقامه لنفسه فضربه الله بالجنون فكان يظن انه تحول الى صورة بقرة فخرج الى
البرية واقام بين الآجام والغابات مدة سبع سنين وتولت مكانه زوجته الملكة
نينوكريس . وعند نهاية تلك المدة تاب ورجع الى الله فحكم سنة واحدة ثم توفي

سنة ٥٦٢ ق م



صورة ملك اشوري وجدت في خرائب نينوى

ونولى بعده ابنه اوبل مروдох وكان هذا الملك محباً لدانيال النبي وهو الذي اطلق سبيل يهوياكيم ملك يهوذا من الاسر وقدمه على سائر الملوك الساقطين ومنحه المكان الاول في الجلوس على المائدة. وانتهى الحال بهذا الملك انه مات قتيلاً في حرب اقامها عليه الفرس والماديون تحت قيادة كورش بعد ان حكم نحو ثلاث سنين. ثم جلس على سرير المملكة بعده بلشاصر ابنه وكان منهمكاً في اللذات لا يلتفت الى الاحكام ولا يسأل عن احوال الرعايا وصرف اوقاته بالولائم واللذات ولذلك لم عنان الاحكام الملكة نيتوكريس فكانت

تنوب عنه وتشاركه في الحكم وليت اشتراكها معه مدة عشرين سنة . وانفق في
اواخر هذه المدة انه بينما هو مولى وليمة عظيمة ذات يوم وعاكف على الشرب
والانشراح امر باحضار الاواني الذهبية التي كان نبوخذ نصر جده قد سلبها
من هيكل اورشليم فاستخدمها في شرب الخمر فظهرت له يد كتبت على الحائط
بعض كلمات غير منهومة فدهش هو وجميع الحاضرين من تلك الكتابة المبهمة
واستدعى اليه جميع السحرة لينكوها وينسروها له واذ لم يمكنهم تفسيرها احضر
اليه النبي دانيال وطلب منه ان يبين له معانيها فوجه النبي الى تجسس اسم الله
ثم فسر له معنى تلك الكلمات الدالة على فقد حياته وفقد المملكة ايضا من ايدي
ذريته عن قريب ففي تلك الليلة نفسها قُتل بلشاصر بسبب فتنة اهاجوها
رجلان من اشراف المملكة كان قد اساء اليهما واضرهما جدا

وتولى بعده ابنه لابورا سوارخاد سنة واحدة واستبد بزمام المملكة بعده
كياكسار الثاني وهو داربوس المادي ابن اسنباج سنة ٥٢٨ ق م . وداربوس
هذا هو الذي امر بطرح دانيال في جب الاسود بسبب وشاية بعض القواد
الذين كانوا بمحسذونه ولكن لما انقذه الله من تلك المهلكة زادت كرامته في
عيني الملك واظهر له مائة الخاص وفاده الوزارة العظمى على جميع الروساء
والقواد وجعله من اكبر ولاة الامور كما سنبين ذلك في الكلام على اخبار
العمانيين

الباب الخامس

في ديانة الاشوريين وفنونهم

وكان الاشوريون يعبدون الكواكب ويعظّمونها ويعتقدون ألوهية

بعض افراد الرجال وكان عديم لكل كوكب صنم منها صنم بعل الذي بنت له الملكة سيمرامس الهيكل الكبير وهو من اعظم معبوداتهم وسموه اله الارض الاكبر لانه كان رمزاً عن الشمس . ومن جملة الهتهم نسروخ ومعناه نسر عظيم .



نسروخ اله اشوري

ومنها ايضاً ما كان على صورة السمك . وكانوا يعبدون الملكة سيمرامس المقدم ذكرها واقاموا لها صوراً منقوشة بيثة حمامة لرعيهم انها تحولت الى هذا الجنس

من الطيور بعد موتها . وكان لهم معرفة تامة بالصنائع وانواع الفنون وكانت
ابنيتهم عظيمة كابنية المصريين مزخرفة
بانواع النقش والمخمر والتصوير وهم الذين
اخذوا المزاويل وعرفوا حركات
الكواكب . وكان لهم في علم الطب باع
اطول فكانوا ياتون بالمرضى ويضعونهم في
الازقة ومعاير الطرق بقصد انه اذا مر
عليهم احد ممن قد اُصيب بذلك الداء
المصاب به المريض حينئذ يعلم سبب شفاؤه
من تلك العلة وبهذه الوسطة مارسوا علم
الطب جيداً حتى برعوا فيه واتقنوه غاية
الاتقان وكانوا يكتبون اسماء العلاجات
المفيدة على الواح ويلقونها في هيكل اله
الطب



اله سمك من امة الاشوريين

الفصل الرابع

في تاريخ العبرانيين

الباب الاول

في ذكر ابراهيم وارتحال يعقوب واولاده الى مصر

راس العبرانيين وجدّهم ابراهيم بن تارح وُلد بعد الطوفان بقرن ٢٠٠ سنة في بلاد الكلدانيين في الجهة الجنوبية من مملكة اشور وكانت تابعة لها .
والحق ان اليهود من نسل سام كما يستدل من لغتهم التي هي قريبة من العربية والسريانية والكلدانية

واشتهر الكلدانيون قديماً بالمعارف والفنون وبرعوا في علم الهيئة والنجوم حتى كان الرومانيون في الازمنة الاخيرة يستدعونهم ويستخدمونهم في الامور ذات الشأن . وكانوا مع حذاقتهم وبراعتهم يعبدون الاوثان ويسجدون للشمس والقمر والنجوم دون الحي القيوم . واما ابراهيم فكان يعبد الاله الحقيقي . وكان في اول امره يرعى الغنم في سهول تلك البلاد واستمر على ذلك حتى توفي ابيه ثم امره الله ان يخرج من وطنه ويذهب غرباً الى ارض كنعان شمال بلاد العرب وشرقي بحر الروم وهي الارض المعروفة اليوم بفلسطين ووعده بان تلك الارض سوف تكون ملكاً لذريته فامثل ابراهيم امر الله وارتحل مع زوجته سارة وباقي خدمه ومواشيه وكانوا يجولون من مكان الى مكان ساكنين في الخيام . ولم يكن لابراهيم ولد فرزقه الله اسمعيل من هاجر ثم اتحق من سارة وكان بحبه كثيراً فامتحنه الله وامره ان يذبحه تقدمة له فاجاب بالسمع والطاعة ولما رأى الله قوة ايمانه ارسل له ملاكاً يامره ان لا يفعل ذلك . ولا يسعنا المقام في هذا المختصر ان نذكر بالتفصيل اخبار ابراهيم فنقول بوجه الاختصار انه



يوسف للاسماعيليين

كان خليل الله عاش من العمر ١٧٥ سنة وتوفي في حبون وهي المعروفة الآن بمدينة الخليل ودُفن بجانب زوجته سارة في مغارة المكفيلة وهي لم تنزل الى يومنا هذا ويقصدها كثير من السياح

واما اسحق بن ابراهيم فرزق ولدين هما عيسو ويعقوب فاشترى يعقوب من اخيه عيسو بكرورته باكلة من العدس وبعد ذلك اكتسب من ابيه بالحيلة البركة التي كانت معدة لعيسو فصار هو الوارث للبركة والموعد عوضاً عن اخيه البكر. ورزق يعقوب اثني عشر ولداً وهذه اسماؤهم راوبين. شمعون. لاوي. دان. يهوذا. نفتالي. جاد. اشير. يساخر. زبلون. يوسف. وبنيامين. ومن هؤلاء تسلسلت اسباط بني اسرائيل الاثنا عشر. اما يوسف احد اولاد يعقوب فكان اخوته قد باعوه للاسماعيليين فاخذوه الى مصر وباعوه عبداً سنة ١٧٢٩ ق م وبعد ما اقام ١٤ سنة في الاسر تقدم في باب فرعون طوطيس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة كما سنين ذلك باكثر وضوح في الكلام على تاريخ مصر وكان الواسطة في حفظ حياة ابيه واخوته من الموت بالجموع. وفي سنة ١٧٠٦ ق م انحدر ابيه يعقوب مع اولاده الاثني عشر الى مصر وسكنوا هناك وتكاثروا حتى صاروا امة عظيمة. ومات يعقوب سنة ١٦٨٩ ق م ويوسف سنة ١٦٢٥

ولما توفي فرعون ملك مصر الذي كان يحب يوسف خلفه فراعته آخرون لم يكونوا يعرفون الاسرائيليين فاساءوا اليهم وظلموهم وساموهم اعمالاً شاقة جداً وعاملوهم كالعبيد. وكان من جملة القساوة البربرية التي اجراها احد الفراعنة المذكورين مع العبرانيين اصداره امراً بان كل ذكر يولد لهم يُلْهَ حالاً في نهر النيل. وقصد في ذلك ان يقطع نسلهم لئلا يكثروا وتقوى شوكتهم على المصريين ويقتصبوا منهم البلاد

الباب الثاني

في خروج بني اسرائيل من مصر تحت رياسة موسى
واستيلائهم على ارض كنعان

وما زال بنو اسرائيل يكابدون المشقات والمتاعب حتى ولد موسى فجعلته
امه في تابوت والفته بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت اخيه من بعيد لتتظار
ما يكون من امره وبعد ذلك بقليل حدث ان ابنة فرعون جاءت الى النهر
مع جوارها لتغتسل فرأته واستخرجته من التابوت ورقت له وقالت هذا من
العبرانيين فن لنا بمن ترضعه فقالت لها اخيه انا اذهب وادعو لك مرضعة
من العبرانيات فقالت اذهبي فذهبت التثاء وجاءت بامه فسلمتها ابنة فرعون
الصبي فاخذته وارضعته ولما ترعرع اتت به اليها واسلمته لها ونشأ عندها ودعت
اسمه موسى وعلمته كل علوم المصريين وفنونهم التي كانوا قد امتازوا بها على
باقي اهل العالم فاتقنها اتقاناً جيداً . ولكنه مع ما كان عليه في بيت فرعون من
الرفاهية والصولة لم ينس مشقات العبرانيين وتهدياتهم متذكراً انهم اخوته
فكان يشفق عليهم ويود خلاصهم

ثم اعطى الله موسى وهرون اخاه قوة من السماء على أن ياتيا فرعون
يربطبا اليه اطلاق العبرانيين من عبودية المصريين وجور فراعنتهم ويصنعا
العجائب امامه ليعلم بان هذا الطلب هو من الله . فخرجا اليه وصنعا عجائب
كثيرة وضربا المصريين بالضربات العشر المعلومه واحده بعد اخرى فسلم
فرعون اخيراً باطلاق سيلهم فساروا حتى انتهوا الى ساحل بحر الاحمر
المعروف ببحر السويس الفاصل بين مصر وبلاد العرب ولكنه بعد خروجهم
بقليل ندم على ما فعل فجمع فرسانه وجنوده وتبعهم ليعيدهم للذل والعبودية
فامر الله موسى ان يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق قسمين فعبروا على

اللباسة حتى انتهوا الى الشط الثاني ولما ادركهم فرعون أتبعهم وحاول ان يعبر وراءهم ولما صار في وسط البحر امر الله المياه ان ترجع كما كانت فانطبقت على فرعون فغرق في البحر هو وكل جيشه وفرسانه ومركباته

وكان عدد العبرانيين الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى نحو مليونين ونصف . وكان خروجهم منها في زمن منتظا الثاني احد فراعنة الدولة التاسعة عشرة بعد ان اقاموا فيها مدة ٢١٥ سنة وذلك من نزول يعقوب الى وقت خروجهم . وكان عمر موسى وقتئذ ثمانين سنة وكان على جانب عظيم من الحلم والتواضع والحكمة

وان قال قائل كيف جازمت بان الاسرائيليين اقاموا في مصر ٢١٥ سنة وموسى يقول ان اقامتهم كانت ٤٣٠ سنة ويوافقه على ذلك بولس بقوله ان الناموس الذي صار بعد ٤٣٠ سنة لا ينسخ عهداً قد سبق فتمكن من الله فنقول ان المراد في هذا القول اعتباراً من يوم تغرب ابراهيم في ارض كنعان وليس المقصود فيه التغرب في مصر وواقعة الحال تؤيد الخبر وهاك بيان ذلك

سنة	
٢٥	من وصول ابراهيم الى بلاد كنعان الى ولادة اسحق
٦٠	من ولادة اسحق الى ولادة يعقوب
١٣٠	من ولادة يعقوب الى نزوله الى مصر
٢١٥	مدة اقامة الاسرائيليين في مصر كما تقدم القول
٤٣٠	

وان قال آخرون المدة الموحى بها من الله الى ابراهيم بالوعد هي اقصر من المدة المحكي عنها من موسى وبولس بثلاثين سنة فالجواب ان كلام الوحي لا يشير الى ذات ابراهيم بل الى نسله حيث يقول ان نسلك سيكون غريباً في ارض ليست لهم اربعة سنة واما موسى وبولس فيشعلان غربة ابراهيم ايضاً اذ يحسبان انه كان غريباً مثل نسله فاذا قد تقرر ذلك وجب علينا ان نخذف من الحساب

المقدم ذكره الخمس والعشرين سنة المنسوبة الى غربة ابراهيم لحين ولادة اسحق فيكون الباقي ٤٠٥ سنين ولاجل التلخيص من فرق الخمس سنين نقول انه كان من عادة اليهود في تلك الايام ان تقطع اطفالها في نهاية الوقت الذي انتقلوا به من سن الطفولية الى سن الصبا اعني بعد مرور خمسة اعوام من تاريخ الولادة فدرى اذا ما تقدم ان المدة التي حددها الله لابراهيم بيتدئ تاريخها من ذلك اليوم الذي كان محفوظاً لاحتفال فطام الولد وعلى هذه الكيفية تكون الموافقة تامة

وكان قصد الله في اخراج العبرانيين من مصر ان يذهبوا الى ارض كنعان التي وعد ان يملكهم اباها على لسان ابراهيم . وكان طريقهم على اطراف بلاد العرب التي هي شرقي بلاد مصر والبحر الاحمر . ولكي لا يضلوا عن الطريق اقام لهم عموداً من محاب ليرشدوهم في مسيرهم نهراً وعمود نار يضيء لهم ليلاً في رحلاتهم . واذ كانت تلك البراري المقفرة بلا نبات ولا ماء كان الله يقيهم بالماء عوض الخبز والسلوى عوض اللحم ويأتيهم بالماء من وسط الصخرة وقد اعانهم ونصرهم في محاربتهم لاهل عماليق

ولكنهم مع كل هذه المراحم لم يعتبروا احسانات الله فعصوا وتمرّدوا عليه بانواع مختلفة وكثيراً ما تركوا عبادته وعبدوا الاصنام . وينا كان الله معلناً ذاته لموسى على جبل سينا الزم الشعب هرون ان يصنع لهم عجلاً من ذهب ليعبدوه عوضاً عن الخالق الذي اخرجهم وانتقدهم من عبودية المصريين بذراع ربيعة وقوة عظيمة

ولسبب مخالفتهم وتعديانهم الكثيرة غضب الله عليهم وانتقم منهم اشد انتقام فامات بعضهم بالوباء وجعل الارض تنفتح فاما وتبتلع بعضهم واصل الاخرين عن الطريق اربعين سنة فتاهوا في برية بلاد العرب مع ان المسافة بين مصر وارض كنعان لا تبعد اكثر من مائتين وخمسين ميلاً وهي عبارة عن اثني عشرة مرحلة فقط وزد على ذلك انه لم يدخل الى ارض كنعان احد من ذلك

الجبل الذين خرجوا من مصر الآ يشوع بن نون وكالب بن يفتة والباقيون ماتوا في البرية ولم يدخلوها غير اولادهم واولاد اولادهم حتى ان موسى ايضا لم يسمح له بالدخول بل اراه تلك الارض الواسعة من راس الفسحة في جبل نبو وهناك مات ولم يعرف قبره الى هذا اليوم

ثم اقام الله للاسرائيليين بعد موسى يشوع بن نون فقادهم الى ارض الميعاد واخضع لهم اهل تلك البلاد وقتل ملوكها واحرق مدينها بالنار وقسم املاكها وارضاها على اسباط اسرائيل الاثني عشر. وبعد موت يشوع ارتد بنو اسرائيل عن الله وعبدوا الالهة الغريبة فسلط الله عليهم الفلسطينيين واسلمهم يدهم فكانوا يضاقونهم وبذلونهم ويسبونهم وكانوا عندما يلتجئون الى الله ويصرخون اليه في وقت الضيق والشدة يشفق عليهم ويقيم لهم قواددا من ذوي الاهلية واللباقة في السياسة والحروب وكان بزيمهم بشجاعة وحكمة لكي ينقذهم من مصائبهم وشدائهم ويكونوا ولاة امورهم. وتلقب هؤلاء القواد بالقضاة اذ كانوا يقضون ويحكمون بين الشعب وذلك في المدة المتوسطة بين موت يشوع المذكور وقيام شاول الملك الاول وكانت سلطة هؤلاء القضاة اقل من سلطة الملك فلم يكن لهم سلطان ان ينظموا احكاما او قوانين جديدة بل كانوا يعامون عن الشرائع ويحافظون على حقوقهم وينظرون لكليات مصالحهم ويتفقون من المجرمين ولاسيما الذين يتوغلون في العبادة الوثنية. وكان عدد هؤلاء القضاة اربعة عشر واستمر حكمهم بحسب راي الاكثرين نحو ثلث مئة وعشر سنين وذلك من بعد موت يشوع بعشرين سنة الى تويج شاول الملك الاول والمجدول الآتي يبين اسماءهم وتاريخ حكمهم

جدول اسماء القضاة وناريخ حكمهم

١	عثنيل بن قناز اخو كالب	سنة ١٢٩٤ ق م
٢	اهود بن جيرا البنياميني	١٢٢٦
٣	شجر بن عناة	
٤	باراي بن اينوع ومعه دبورة النبية	١٢٩٦
٥	جدعون بن يواش ويقال له يربعل	١٢٤٩
٦	تولع بن فزاة بن دودو	١٢٠٦
٧	يانير الجلعادي	١١٨٣
٨	يفتاح الجلعادي	١١٤٣
٩	ابسان من بيت لحم	١١٣٧
١٠	ايلون الزبولوني	١١٣٠
١١	عبدون بن هليل الفرعوني	١١٢٠
١٢	شمشون بن منوح	١١٤٠
١٣	عالي الكاهن	١١٨٣
١٤	صموئيل النبي	١١٤١

الباب الثالث

في ذكر جدعون وشمشون من قضاة الاسرائيليين

وحيث كان بعض اولئك القضاة ذوي شجاعة وبأس رأينا ان نذكر بعض افعالهم تذكراً لهم فنقول انه في مدة قضاء جدعون اتي المدانيون بجيوش عظيمة وجموع كثيرة وضايقوا الاسرائيليين وحاصروهم مدة سبع سنين

واذلوهم كثيراً فامر الله جدعون المذكور ان ينزل اليهم بثلاثمائة رجل فقتل اليهم بهذا العدد وكان كل واحد منهم حاملاً بيده الواحدة جرة فارغة داخلها مصباح وبالاخرى بوقاً فلما اشرفوا عليهم وجدوهم نياماً وهم في غابة الاطشنان غير مبالين بشيء فامر جدعون رجاله ان يكسروا جرارهم ويشهروا مصابيحهم يسارهم ويبوقوا بابواقهم ففعلوا كما امرهم فتناولوا المصابيح باليسار وبوقوا بالايواق ونادوا باعلى اصواتهم للرب ولجدعون فاتبه المديانيون من رقادهم بغتة وهم يظنون ان عسكر الاسرائيليين قد هجم عليهم ودهمهم فخافوا واضطربوا ونهضوا في الحال لا يعلمون ماذا يفعلون وكانوا يزاحمون بعضهم بعضاً على الهزيمة والفرار ويقتل كل منهم صاحبه وهو لا يعرفه واشتدَّت بينهم المعركة طول ذلك الليل حتى قتل بعضهم من البعض عدداً كثيراً وولى من بقي منهم الى بلادهم غير مصدقين بمجانهم

ومن اعظم قضاة اسرائيل واشهرهم شمشون الجبار وكان من اشد جبابرة العالم واقدرهم لم يات الزمان بمثله . ولم يفعل احد كفعله وما يستحق العجب ان سبب قوته كانت ناشئة من شعر راسه لانه كان اذا اطلق شعره تضاهي قوته قوة مئة رجل واذا جلقه تضعف ويصير كباقي الناس . ومن افعاله انه التقى يوماً باسد كاسر فقبض عليه وشق نصفين كما يشق الرجل الجدي وليس في يده شيء . والتقى يوماً بثلاثين رجلاً فقتلهم واخذ ثيابهم وامتعنهم . وفي ايامه تغلبت الفلسطينيين على الاسرائيليين وضربوا بهم فغضب شمشون من ذلك ونهض لاقاومتهم والانتقام منهم . فامسك مرة ثلثمائة ابن آوى واخذ مشاعل وجعل ذنباً الى ذنب ووضع مشعلاً بين كل ذنين في الوسط ثم اضرم المشاعل ناراً واطلقتها بين زروع الفلسطينيين فاحرق الاكداس والزرور وكرور الزيتون . وقتل مرة منهم الف رجل بفك حمار من بعد ما قطع الوثق التي كان مقيداً بها وهي حبلان جديدان . ونزل يوماً الى غزة فأوَّصد عليه الفلسطينيون ابواب المدينة لكي يقتلوه عند الصباح ولما علم بذلك قام عند نصف الليل ونزع

مصري باب المدينة مع القائمتين والعارضة وحملها على كتفيه وصعد بها الى
راس نلة بعيدة



غزة

وكان شمشون مع شدة بغضه للفلسطينيين ومراظبه على اضرارهم قد احب
امراة منهم اسمها دليلا فكانت تظهر له المحبة والوداد وهي في الباطن عاملة على
اهلاكه لان الفلسطينيين كانوا قد وعدوها بمبالغ وافرة لتخذه ونعلم منه بماذا

تقوم قوته العظيمة فاخذت دابلة تملأه بانواع الخداع والحيل لكي يفر لها
 بهذا الامر فخدعها شمشون وقال لها انه اذا رُبط بسبعة اوتار طرية تذهب
 قوته فحزبت ذلك وربطته بسبعة اوتار ثم قالت له الفلسطينيون عليك
 يا شمشون وكانت فرسانهم كامنة عندها في البيت فقطع الاوتار كما يقطع فتيل
 المشاقة اذا شتم النار. ثم الحت عليه ثانية بتشديد ان يعلمها الصبح فقال اذا
 اوثنوني بجبال جديدة لم تستعمل اضعف واصير كواحد من الناس. فربطته
 بجبال جديدة ونادته كالاول فقطع الجبال عن ذراعيه كما يقطع الغلام
 الخيط فاغناظت دليلة اخيراً وكررت عليه السؤال واذ لم يمكنه مخالفتها اخبرها
 بواقعة الحال ولما انكشف لها الامر وعرفت باطن الطوية وان قوته قائمة
 باطلاق شعره وعدم رفع موسى على راسه لانه كان نذيراً لله من بطن امه ارسلت
 فدعت اليها وجوه آل فلسطين واوقفهم على الحقيقة واخذت منهم النضة التي
 وعدوها بها ثم جعلتهم في كمين وانامت شمشون على ركبته ودعت رجلاً خلق
 له شعره ففارقته قوته وبهذه الوسيلة اسلمته لاعدائه فاخذوه الفلسطينيون
 واوثقوه بسلاسل من نحاس وقلموا عينيه وسجنوه وجعلوه يطحن الشعير
 والمخطة. وابتدا شعر راسه ينبت بعد ان خلق فعادت اليه قوته كما كانت
 وصار من اشد الناس. واتفق في بعض الايام بينا كان الفلسطينيون مجتمعين
 يوم عيد الهم داجون وهم في غابة الفرح والمجور على اسر شمشون انهم دعوا
 شمشون من النجس ليلعب امامهم ويبسطهم فجاء الى القاعة التي كانوا مجتمعين
 فيها وكان البيت مملواً من الرجال والنساء وعلى السطح نحو ثلاثة الاف نسمة
 يتفرجون على لعبه وكان في وسط القاعة المذكورة عمودان كبيران كان البيت
 قائماً عليهما فلما فرغ شمشون من لعبه قبض على العمودين المذكورين الواحد
 يمينه والاخر يساره واخنى عليهما بقوته من بعد ما استعان بالله فسقط البيت
 على من فيه وماتوا جميعاً فكان الذين امانهم بموته اكثر من الذين امانهم في
 حياته

الباب الرابع

في ذكر شاول وداود وسليمان

اذ لا يسعنا في هذا المختصر ان نستوفي كل اخبار ملوك اسرائيل ووقائعهم
وحروبهم رأينا ان نذكر اعظمهم واشهرهم على وجه الاختصار فنقول . لما نفرَّ
شعب اليهود من احكام القضاة اخذوا يسمعون في اقامة ملك عليهم ليسوسمهم
ويدبر امورهم فاجتمع جمهورهم وقصدوا النبي صموئيل وكان يومئذ قاضياً ورئيساً
عليهم واتمسوا منه ان يختار لهم ملكاً من اهل الدابة والاستقامة فاشار عليهم ان
يكفوا عن هذا الطلب واظهر لهم المظالم والمتاعب التي كانت الملوك تجربها في
تلك الايام المظلمة . واذ كانوا لا يسمعون له ولم يقدر على ردهم اتخبت لهم شاول
بن قيس وسمّوه ملكاً عليهم سنة ١٠٩٥ ق م وهو اول ملوك اسرائيل . وكان
جميل الصورة طويل القامة محكم



نحو اربعين سنة وكان في اول
امره سالكاً طريق الحكمة
والاستقامة ممتازاً بمكارم الاخلاق
والنفوى لكنه اخيراً تجبر وتكبر
اذ اتخذ لنفسه وظيفة الكهنوت
المحصورة في الكهنة فقط وعصى الله
باستغاثته اجاج ملك عماليق
واعفائه عن خيبر الغنم والبقر

كاهن عبراني يمسح ملكاً

خلاقاً لامر الله الذي كان قضى بنجرها وقتلها

وكان في ايامه بين الاسرائيليين وباقي الشعوب المجاورة لم حروب متصلة

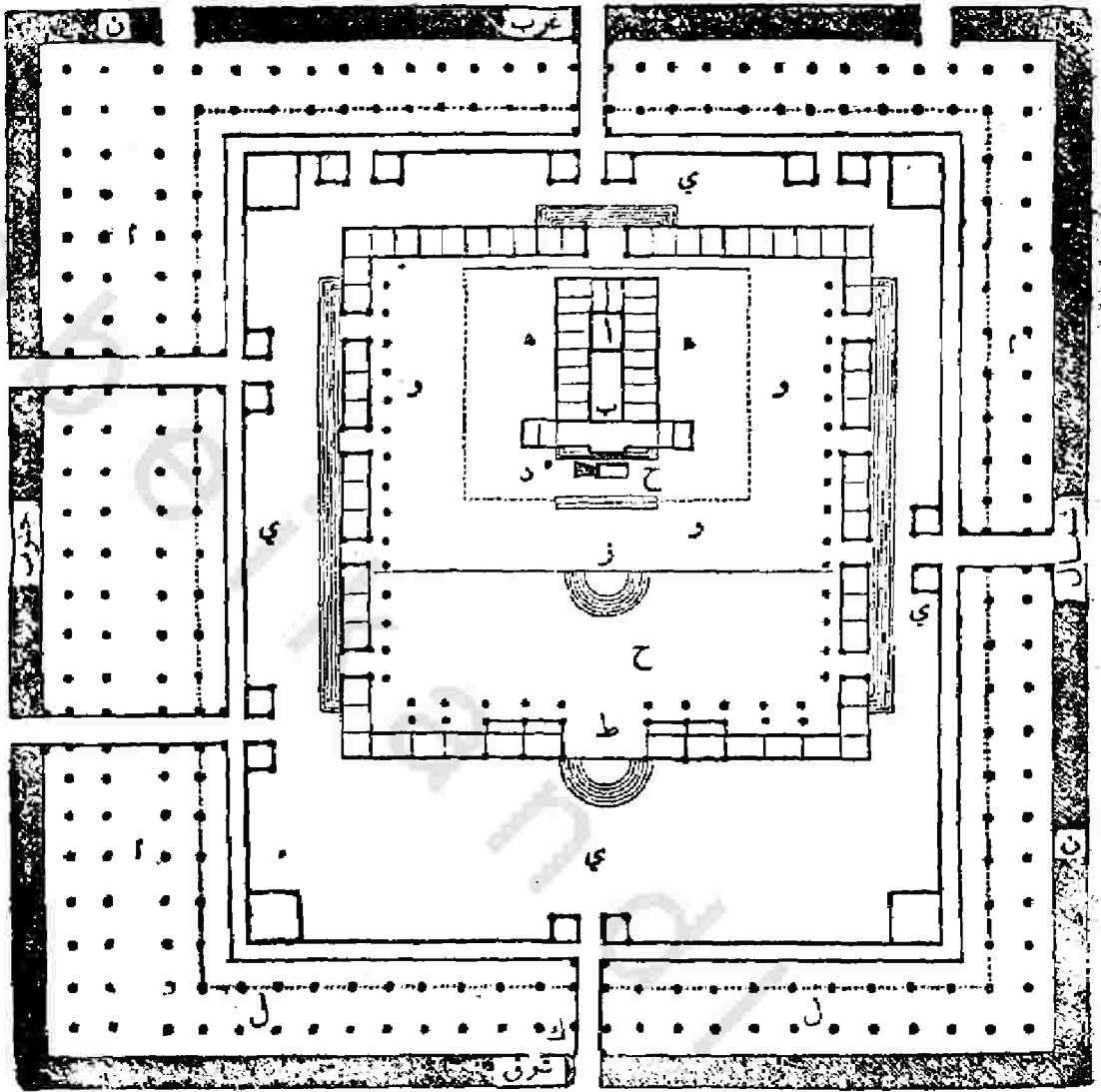
واجتمع الفلسطينيون يوماً لقتال الاسرائيليين فالتفاهم شاول بمجموع اسرائيل . وكان في معسكر الفلسطينيين شخصٌ من الجبابرة الطغاة اسمه جليات طوله ست اذرع وكان متدرباً بالحديد ومسلحاً بالاسلحة المانعة ووزن سنان رمحه احدى عشرة افة . وكان يتزل كل يوم الى ساحة الميدان وينهدد الاسرائيليين بالكلام ويستدعيهم للمبارزة والقتال فيتأخرون عنه وبخافوه كما تخاف الشاة من الذئب ولم يزل على ذلك حتى اقبل على اسرائيل داود بن يسي من سبط يهوذا من مدينة بيت لحم وكان شاباً صغير السن يرعى الغنم لابيهِ وكان مع صغرسه شجاعاً جسوراً فلما سمع صوت الفلسطيني استأذن من الملك شاول لمبارزته فاذن له بذلك فاسرع ونزل الى ميدان الحرب بثيابه المعتادة ولم يكن مع داود سلاح سوى مقلع وخمسة احجار من زلط في كنفه فلما رآه ذلك الجبار صاح عليه صيحة عظيمة واخذ ينهدده ويشتمه فلم يكثرث داود بكلامه بل تقدم لاستقباله واخذ حجراً من كنفه ووضعه في المقلع وقال انت تاتي اليّ بالسيف والرمح وانا آتي اليك باسم رب الجنود ثم برم المقلع وقذفه بالحجر فارتد في جبهته وسقط على وجهه الى الارض فبادر داود اليه واستل سيفه وقطع به راسه فلما رأى الفلسطينيون ان جبارهم وعميدهم قد مات انهزموا وتفرقوا في افطار التلقاتهم الاسرائيليون وقتلوا منهم عدداً كثيراً ثم رجع داود من الحرب ويده راس جليات فاكتسب بذلك فخراً ومدحاً من جميع الناس وزوجه شاول بابنته وجعله حامل سلاحه ثم حسده وابلى منه بالغيرة وصم على قتله فهرب داود من امام وجهه ولحقى باهل فلسطين واقام عندهم اياماً ثم التجأ الى الجبال والكهوف وبقي على هذه الحال نحو ٢٤ سنة حتى قُتل شاول مع ابنيه يوناتان في حروبه الاخيرة مع الفلسطينيين

وبعد موت شاول اختار شعب يهوذا داود المذكور ملكاً عليهم وكان ذلك سنة ١٠٥٥ ق م فساسهم سبع سنين وستة اشهر ثم انضم اليه جميع اسباط اسرائيل فتولى عليهم نحو ثلاث وثلاثين سنة وقاتل جميع الامم المجاورة له وظهر

هم واذلهم وضرب عليهم الجزية واعنى باصلاح المملكة فزديها وشيدها حتى بلغت الى درجة سامية من العظمة والفخار والشوكة والافتدار وجعل قصبة مملكته مدينة اورشليم . وكان داود على جانب عظيم من الحكمة والتقوى والصلاح مستقيماً مع الله فاحبه الله ووعده انه يعطي الملك لنسله من بعده وان المسيح ياتي من ذريته . وكان شاعراً فصيحاً وقد خلف ذكراً موبداً بنشائده الزبورية المطربة التي لايزال اكثر الناس يستعملونها الى يومنا هذا في التسيجات الروحية ويشترك في الفاظها الرقيقة العذبة كل قلب نقي غير انه كان وقع في زلة فظيعة بقتله اوريا الحثي لاجل التزوج بامرأته فاورثه ذلك الحزن الشديد وتاب الى الله وقبل

ثم قام بالملك من بعد داود في بني اسرائيل ابنه سليمان وكان ملكاً مهيباً حكيماً ذا شوكة وثروة وفراصة وهو الذي بنى الهيكل المشهور في مدينة اورشليم لعبادة الله عز وجل وكان قد مضى على اليهود نحو اربعماية وثمانين سنة منذ خروجهم من مصر ولم يكن لهم مسجد فاعتنى ببنائه وانفق عليه اموالاً جزية وكانت اخشاباً من شجر الارز والسرو الذي استجلبه من لبنان بواسطة حيرام ملك صور وزين الهيكل من داخله بانواع النفوش والتماثيل الملبسة بالذهب بما لا يستطيع لسان التلم ان يصنه او يحصي قيمة نفقته واستمر في بنائه نحو سبع سنين وكان الفراغ منه بعد الخليفة بثلاثة الاف سنة وقبل المسيح بالف سنة وحسب هذا البناء من عجائب الدنيا

وكان سليمان شاعراً مثل ابيه وله مؤلفات في الفلسفة الادبية وفضى كل مدة ملكه في راحة تامة مع الملوك جيرانه وكان محبوباً ومكرماً من الجميع ولكنه سقط بالعبادة الوثنية واتخذ لنفسه نساء كثيرة ما بين حرة وسرية وتزوج بنت فرعون ملك مصر وبني لها على ما قبل القصر الذي في بعلبك ومدينة تدمر في البرية ثم ندم وتاب ورجع الى الله



معنى الاشارات في هذه الصورة

أ	قدس الاقداس	ح	دار النساء
هـ	دار الكهنة	ل	رواق سليمان
ب	القدس	ط	الباب الجميل
ج	مذبح المحرقة	ي	دار الامم
د	مرحضة النحاس	ك	الباب الشرقي
و	دار اسرائيل	م	الرواق السلطاني
ز	باب نيكانور	ن	المحائط الخارجي

وما ذكر من امر فراسته انه سينا هو ذات يوم في مجلسه دخل عليه
امرأتان تتنازعان على طفل صغير تدعي كل امرأة منها انه ولدها واذ كان
الامر ملتبساً امر سليمان باحضار سيف وان يُقطع الطفل الى قطعتين ويُعطى
لكلٍ منها النصف لاجل فض هذا المشكل فلما رأت ام الطفل الحقيقية بريق



السيف فوق رأس ابنتها فحركت عواطف قلبها بالشفقة والرافة وصرخت قائلة

لا تفعل يا سيدي ضرراً بالولد بل اعطه الى هذه المرأة الشريرة ودعه يحيا اما
 المرأة الثانية فقالت بدون شفقة اني لا اريد الا حفي فليقطع الولد وانا آخذ
 نصفه فعمل حينئذ سليمان من تصرفها الام الحقيقية وامر باعطاءها ابنها
 واوصل سليمان بلاد اليهودية الى درجة عليا من المجد فكانت ممتدة
 الى حدود مصر وقسم من البحر الاحمر جنوباً وغرباً الى نهر الفرات شمالاً
 وشرقاً . وكانت اليهودية يومئذ منقسمة الى قسمين . الاول اليهودية التي
 استولى عليها الاسرائيليون في ايام يشوع وقسمها بينهم كما هو مذكور في سفره
 والثاني اليهودية المفتوحة المضممة ما لك الشام وتدمر وبلاد الادوميين والعمونيين
 والموابيين وغير قبائل عربية للجنوب والشرق . ولأجل تسهيل ادارة الاحكام
 قسم سليمان هذه البلدان الى اثني عشرة ولاية واقام عليها اثني عشر والياً من
 رجاله الامناء . وكان له ايضاً سفن بحرية كانت تسافر مع سفن الصوريين
 الى شرقي افريقيا والبعض يقولون انهم وصلوا الى بلاد الاندلس
 ونوفي سليمان لاربعين سنة من ملكه ودفن بجانب ابيه داود فهو لاهم
 الملوك الثلاثة الذين استولوا على كل اسباط اسرائيل

الباب الخامس

في انقسام مملكة اليهود والاسر البابلي

وبعد موت سليمان تولى ابنه رحبعام سنة ٩٢٥ ق م وحسب انباء الله
 السابق ما لبث في المملكة حتى انقسمت الى قسمين فاختاز الى يوربعام بن ناباط
 عشرة اسباط اسرائيل واقاموه عليهم ملكاً واتخذوا مدينة السامرة كرسياً لملكهم

وفي رجعم بن سليمان ملكاً على سبطي يهوذا وبنيامين في مدينة اورشليم وما يليها . وكان السبب في ذلك اتباعه مشورة اصدقائه الاحداث ورفضه راي الشيوخ في مسألة الشعب ومعاملتهم بالرفقة واللين . وكانت اكثر ايامه حروباً مع يربعام وبني اسرائيل . وفي ايامه زحف شيشق ملك مصر الى اورشليم ونهب الهيكل

اما عدد الملوك الذين تولوا على اسرائيل فكانوا تسعة عشر ملكاً وكان اكثرهم يعبدون الاصنام واستمر ملكهم مدة مئتين واربعة وخمسين سنة الى ان زحف على الملكة شلنصر ملك اشور سنة ٧٢١ ق م وحاصر السامرة واسر الاسباط العشرة مع ملكهم ونقلهم الى بلادهم فكانوا مستعبدين في جوف اسيا وهكذا انقضت ملكة الاسباط العشرة وتلاشى امرهم ولم يسمع لهم خبر ولا ذكر بعد ذلك . ثم اتى ملك اشور بقوم من بلادهم من قبيلة الكوفيين واسكنهم مدن السامرة عوضاً عن الاسرائيليين ومن هولاء نشأت طائفة السامرة

واما ملوك يهوذا فكان عددهم تسعة عشر ملكاً ما عدا عثليا ام آخرها كما ترى بيان ذلك في الجدول الآتي وهم من ذرية داود وكان بعضهم من اهل التقوى والصلاح كحزقيا ويوشيا الذي قتله نحو ملك مصر . وكانت حروبهم منصلة مع مصر واشور وملكة اسرائيل حتى التزم الملك احاز مرة ان يستدعي تغلت فلاسر ملك اشور لمساعدته على ملكي الشام واسرائيل المتحددين عليه فأتى وخرّب دمشق ثم ضرب الجزية على ملكي اسرائيل ويهوذا وفي ذلك الى ان قام حزقيا فاعتنى اليهودية من يدي الاشوريين وتخلص من غزو سنجاريب على اورشليم كما ذكر في تاريخ اشور . وفي ايام الملك يهوياقيم احد ملوكهم الذي كان قد دفع الجزية الى فرعون ملك مصر زحف نبوخذ نصر ملك بابل الى اورشليم سنة ٦٠٦ ق م وسبي جانباً من الشعب وهذا هو السبي الاول ثم بعد ذلك بثمان سنين زحف ثانية في ايام يهوياكين بن يهوياقيم

المذكور واسره مع رؤسائه وقسم من الشعب ونهب الهيكل وكل ما فيه من الخف
 النفيسة والاولاوي الثمينه وهذا هو السبي الثاني ثم بعد ذلك بعشر سنين زحف
 نبوخذ نصر ثالثه في ايام الملك صدقيا كما مر وحاصر اورشليم فافتتحها واسره
 الى بابل بعد ان اذله وقلع عينيه واحرق المدينه والهيكل بالنار وسبي كل شعب
 يهوذا ما عدا المساكين والفقراء وهذا هو السبي الثالث والاخير وهكذا افترض
 مجد هذه المملكه سنة ٥٨٨ ق.م وكانت مدتها ٢٨٧ سنة بعد انفصال مملكه
 اسرائيل عنها

ولما استولى كورش ملك فارس على بابل اذن لليهود في اواخر حكمه
 ان يرجعوا الى بلادهم بعد ان اخذ عليهم عهداً انهم لا يخفون بل يكونون
 تحت الطاعة والانقياد خاضعين للاوامر الفارسيه فرجعوا وبنوا الهيكل ومارسوا
 طقوس عبادتهم وكانوا تحت سلطه ملوك الفرس الى زمن اسكندر الكبير
 سنة ٣٣٠ ق.م وذكر يوسفوس المؤرخ ان اسكندر الكبير لما تقدم بجيشه نحو
 القدس ليفتحها انتقاماً لامدادهم اهل صور بالذخائر والعلوفات عند ما كان
 محاصراً المدينه ظهر له ملاك في الطريق ويهدده على ما كان قصده من
 خراب اورشليم فخاف اسكندر وعدل عما كان صمم عليه وعند وصوله الى
 المدينه دخلها كرائر وسجد لاله اسرائيل في الهيكل وانحف الكهنة بهدايا فاخرة
 ثم تحول عنها قاصداً داريوس ملك الفرس

ملوك يهوذا			ملوك اسرائيل		
اسم الملك	تاريخ حكمه	مدة حكمه	اسم الملك	تاريخ حكمه	مدة حكمه
	ق م			ق م	
رحبعام	٩٧٥	١٧	يربعام	٩٧٥	٢١ سنة
ايام	٩٥٨	٢	ناداب	٩٥٤	٢
آسا	٩٥٥	٤١	بعشا	٩٥٣	٢٤
يهوشافاط	٩١٤	٢٥	ابله	٩٣٠	٢
يهورام	٨٩٤	٨	زمري	٩٢٩	١
عَثْلِيَام أَخْرِيَا	٨٨٥	١	عمري (بن مدينة السامرة)	٩٢٩	١٢
أَخْرِيَا	٨٨٤	٦	اخاب	٩١٨	٢٢
يواش	٨٧٨	٤٠	اخزيا	٨٩٨	٢
امصيا	٨٢٨	٢٩	يهورام	٨٩٦	١٢
عزريا وعزريا	٨١٠	٥٢	ياهو بن نمشي	٨٨٤	٢٨
يوثام	٧٥٨	١٦	يهوآحاز	٨٥٦	١٧
آحاز	٧٤١	١٦	يواش	٨٤٠	١٦
حزقيا	٧٢٦	٢٩	يربعام الثاني	٨٢٥	٤١
منسي	٦٩٧	٥٥	فترة بدون ملك	٧٨٤	١٢
آمون	٦٤٢	٢	زكريا	٧٧٢	٦ اشهر
يوشيا	٦٤٠	٣١	شلوم	٧٧٢	١ شهر
يهوآحاز	٦٠٩	٢ اشهر	مغيص بن جاري	٧٧١	١٠ سنين
يهوياقيم	٦٠٩	١١ سنة	فقيها	٧٦٠	٢
يهوياكين	٥٩٨	٢ اشهر	فقيح	٧٥٨	٢٠
صدقيا	٥٩٨	١١ سنة	هوشع	٧٢٩	٩

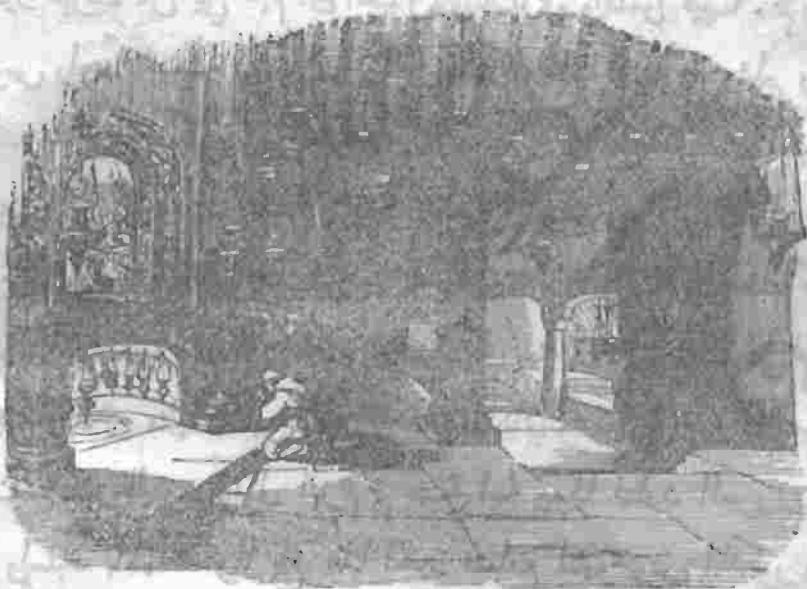
الباب السادس

في تغلب ملوك مصر وسورية على اليهودية واستيلاء الرومانيين
عليها الى حين خراب اورشليم

وكان المصريون قد تغلبوا على اليهودية بعد موت اسكندر واستمرت
شعوب اليهود تحت تسلطهم مدة طويلة ثم اتى بعدهم السوربيون تحت راية
انتيوخوس الرابع احد ملوك الدولة السلوقدية فافتتحو البلاد واستخلصوها
واسروا الاهالي واذلوا امة اليهود وجاروا عليها جوراً عنيفاً وقتلوا من الشعب
خلفاً كثيراً ضرب من بقي منهم الى الجبال والبراري واقاموا فيها . ثم رحل
انتيوخوس راجعاً بمجيوشه الى بلاده وكان قد اقام نائباً له على اورشليم رجلاً
من قواده يقال له فيلكس وامره ان يلزم اليهود ويحبرهم على اكل لحم الخنزير
وان يسجدوا لاصنامهم ويمتنعوا عن الختان وعن حفظ يوم السبت وان يقتل
كل من خالف امره ففعل فيلكس كما امره سيده ويقال انه قتل خلفاً كثيراً
من اليهود من كانوا لا يمثلون لهذه الاوامر . وفي سنة ١٦٦ ق م قام على اليهود
قائدٌ جبارٌ يدعى مثنيا بن يوحانان الكاهن المكابي وهو اول من قام من
المكابين وانتصر لليهود ونولى امرهم ثم خلفه ابنه يهوذا فطرد السوربيين من
البلاد واستبد بالملكة ولما بلغ هذا الخبر مسامع انتيوخوس المذكور ملك
سورية شق عليه ذلك واقسم انه لا بد من ان يحو آثار اليهود عن وجه
الارض ويطنى اخبارهم فتجهز من يومه في جيش عظيم وسار قاصداً البلاد
اليهودية فيينا هو في اثناء الطريق وقع من مركبته الى الارض فمات وارادت
عساكره راجعة الى بلادها . وكان القائد يهوذا بن مثنيا المذكور قد توفي

قتيلاً في معركة حدثت بينه وبين نيكبروس احد قواد الرومانيين وبموته
استولت ذريته على اليهودية وصاروا ملوكاً غير ان الفن والحركات كانت
لم تنزل قائمة في اطراف البلاد

وكان الرومانيون قد ارسلوا جيشاً لافتح بلاد القدس تحت رئاسة
القائد بومبي فحاصرها وفتحها بنحو اربعين سنة ق م ثم سلم زمامها الى رجل من
بلاد آدوم يسمى انتيباتر وكان من عظماء اليهود واشرفهم ذا شجاعة وبأس وجعله
نائباً للدولة الرومانية على المملكة اليهودية . وسنة ٢٧ ق م صدرت الاوامر
من مجلس رومية بعزل انتيباتر المذكور عن ولاية احكام بلاد اليهودية واقام
المجلس مكانه ابنه هيرودس الكبير . وهيرودس هذا هو الذي امر بقتل الاطفال
في بيت لحم لكي يمت سيدنا يسوع المسيح له المجد الذي جاء في ملء الزمان
مولوداً من مريم العذراء في مغارة بيت لحم وكان قد انبى بجيسته ملكاً لليهود .



مغارة الميلاد في بيت لحم

وكان هيرودس هذا ملكاً متبلاً مهيئاً مظفراً ذا سطوة وشوكة وكان مع هذه
الاصناف خبيثاً عسوفاً منرداً حتى انه قتل في مدة ولايته من الخلق ما لا
يحصى الا الله سبحانه وتعالى وقد قتل ايضاً زوجته وثلاثة من اولاده وكان قد

اوصى ابنه بان يقتل بعد موته جميع من في السجون لكي يكون في كل بيت
 عويل ونحيب بعده لئلا تنزع الناس وتتهج بفقدته اما ابنه فلم يفعل ذلك
 وكانت مدة ملكه سبعا وثلاثين سنة وله من العمر سبعون سنة وخمسة ابنه
 ارخلاوس الذي سمي نفسه هيرودس ايضا . وهكذا كانت ملوك اليهود
 خاضعة للدولة الرومانية واستمروا على مثل ذلك الى بعد صعود المسيح فمضى
 اربعين سنة ثم انهم عصوا وتمردوا وخرجوا عن الطاعة وامنعوا من حمل
 الخراج المرتب عليهم فلما في خبرهم الى قيصر رومية شق عليه الامر واستدعى
 اليه في الحال القائد وسبسيانوس وكان من عطاء رؤسائه وامره ان يسير
 بالعساكر والجنود الى بلاد اليهود فيستاصلهم ويخرب مدنها ويهدم حصونهم
 وقلاعهم فامتل وسبسيانوس امره وسار اليهم مع ابنه تيطس بالجيوش الرومانية
 فالتقاهم اليهود وحدث بين الفريقين معارك ووقائع هائلة كان اكثر الانتصار
 بها للرومانيين . ثم سار وسبسيانوس بجنوده الى طبرية وجبل الجليل وبعث
 الى اليهود يدعومهم الى الصلح ويعدم بالجميل ان اطاعوه فلم يجبه اليهود الى
 سؤاله . وكان قد حدث بين اليهود في تلك الاثناء انشقاق وانقسام حتى آل
 الامر بينهم الى حروب اهلية اضعفت شوكتهم وعجلت على خرابهم ودمارهم . وفي
 ذلك الوقت ورد الخبر الى وسبسيانوس بوفاة يرمون قيصر فسار وسبسيانوس
 الى رومية ليأخذ الملك لنفسه وولي ابنه تيطس مكانه لكي يقوم بحصار اورشليم
 وعظمت الحروب والفتن بين اليهود واشتد حتى بعضهم على بعض
 فاغتم تيطس تلك الفرص وهاجم اورشليم وحدث بينه وبين اليهود وقائع
 هائلة قتل فيها من الفريقين خلق كثير وكان تيطس قد ارسل الى اليهود
 مرات كثيرة يدعومهم الى التسليم شفقة عليهم من الهلاك وهم يمتنعون وكثيرا ما
 خاطبهم بنفسه مشافهة ووعدهم بالاحسان والعفو والجميل فلم يجد ذلك نفعا
 بل كانوا يزددون عصاة ويحيون بالشتائم والكلام المبهين فغضب اخيرا
 منهم وعزم على اعانهم فشدد الحصار على اورشليم واحاط بها من كل الجهات

وقطع عنها الامداد فاشتد الجوع بين الاهالي ومات اكثر اليهود وكانوا
ياكلون الجلود ولحوم الكلاب حتى اضطرت احدى نساءهم ان تاكل ابنها
حياً . وكان نيطس قد زاد في القتال والمحصار وياشر بنفسه الحرب ونصب
آلات القتال واقام ابراجاً من حديد وشعنها بالمقاتلين وتقدم تجاه المدينة بقوة
ونشاط وهدم اسوارها وافتتحها عنوة بعد مقاومة عظيمة وهلك في اثناء هذا
المحصار من اليهود حسب قول يوسيفوس المؤرخ نحو الف الف نفس
واحترق الهيكل والمدينة بالنار وجرى دم القتلى في الاسواق كالسواني وكان
عدد المسييين والاسارى سبعة وتسعين الفا . وكان نيطس عند رحيله من
القدس يلقي منهم في كل منزلة للسباع والوحوش الضارية فتزقهم والباقيون
يعبوا عبيداً في رومية

وكان قد بقي جانب من اليهود في اورشليم فاخذوا يرمون المدينة بعد
رجل الرومانيين واقاموا منها جانباً عظيماً فادركهم فيما بعد الامبراطور
ادريان الروماني فهدم ما كانوا قد جددوه من اسوار المدينة وسورها وجعلها
مساحة واحدة على الارض وفتحها وزعها ملأاً وبهذه الحروب انتهى خراب
اورشليم وانقرضت دولة اليهود اجمع وتفرق شملهم وانتشروا في الاقطار ولم يبق
لم بعدها قائم وكان ذلك انما لما انذر المسيح رسلة حيث قال لا يبق من
هذه المدينة حجر على حجر

الباب السابع

في ذكر بعض انبياء اليهود وعجيء المسيح وتفرق اليهود في العالم

فلنرجع الان وتكلم قليلاً عن بعض انبياء اليهود الذين كان الله يكلمهم
ليرشدوا الشعب وينهزم عن العبادة الاصنامية فمنهم النبي ايليا الذي اقام

ابن الاملة من الموت وكان نبياً عظيماً وهو الذي كانت تانيه الغربان بالثوت وهو الذي نطق بغضب الله الذي كان مزماً ان يحل على الملك اخاب الشير ونبأ بان الكلاب سوف تاكل جثة زوجته ايزابل وهو الذي انزل ناراً من السماء وابتلعت رجلين من القواد مع عسكرها وهو الذي ضرب نهر الاردن بردائه فشقه واجتاز على اليابسة وهكذا سر به الله حتى انه نقله حياً الى السماء بركبة من نار

ومنهم اليسع النبي الشهير الذي من جملة عجائبه انه عند ما لعن الاولاد الذين استهزأوا به ظهرت دبتان واقترستا منهم ٤٢ ولداً وبعد موت هذا النبي با شهر قليلة حدث انه وضع ميت في نفس المكان الذي كان قد دفن فيه فخالما مضت جثة الميت عظام النبي نهض وعاش

ومنهم يونان النبي الذي ابتلعه الحوت وبقي في جوفه ثلاثة ايام ثم قذفه الى البرسائما ومنهم اشعيا وحزقيال وارميا الذين تنبأوا بالمصائب التي كانت مزمنة ان تأتي على اسرائيل ويهوذا . ومنهم دانيال الذي اخضعه الله بحكمة فائقة وكان قد أخذ الى بابل اسيراً في السبي الاول وبمساعدة الله فسر للملك نبوخذ نصر حلماً فقال نعمة في عينيه وسلطة على كل ولاية بابل وهو الذي فسر ايضاً لبشاصر الملك ليلة الوليمة الكلمات المبهمة التي كتبت على الحائط التي كانت تشير الى افراض ملكة اشور وهو الذي طرح في جب الاسود بامر الملك داريوس المادي لتمسكه بديانة الله وعدم انكار ايمانه واذا لم يصبه ادنى ضرر اخرجته الملك من الجب وامر بطرح الذين كانوا قد وشوا عليه ففرقهم الاسود وقد ارتقى الى اعلى درجة سامية من الكرامة والمجد في زمن داريوس المذكور والملك كورش

اما نبوات هذا النبي فهي من اغرب واوسع من كل ما سواها لانها تتضمن انباء باحوال العالم عموماً وبحال كنيسة الله في زمن اليهود والمسيح الى نهاية الزمان واشهر نبواته الوحي بعيسى المسيح وتعيين الوقت سبعين اسبوعاً اي ٤٩٠

يوماً باعتبار كل يوم سنة فاذا اعتبرنا بدلية هذه المدة من تاريخ صدور الامر المذكور في نبوة هزرا ٢٥٠٧ الذي كان بنوع مخصوص لاجل المقامة الناموس والمحكومة ونقيتها لامن الاوامر الصادرة قبلاً من الملك كورش وداريوس لانها كانت لاجل بناء الهيكل فقط تكون المدة الى ميلاد المسيح ٤٥٧ سنة واذا اضفنا اليها ٢٢ سنة وهي المدة من ميلاده الى موته فيبلغ مجموعها ٤٨٠ سنة وهذا العدد يساوي المدة المعينة في نبوة دانيال

وذلك من خروج الامر بتجديد اورشليم

الى الوقت الذي فيه نضع كفارة

الاثم ويؤتي بالبر

الابدي

الفصل الخامس

في تاريخ الماديين والفرس

الباب الاول

في بعض ملوكهم واحوال ميلاد كورش

انه اذ كان الماديون والفرس من نسل واحد ولغة وديانة واحدة وبين كل منهما علاقة في الانساب وكانت بلادها متجورة استصوبنا ان نضم هاتين المملكتين في فصل واحد وتكلم فيها كمملكة واحدة فنقول ان بلاد مادي المعروفة الان باذربيجان والعراق العجمي الواقعة جنوباً بين الجبال المحيطة ببحر الخزر كانت قديماً تحت حكم ملكة اشور واستمرت خاضعة لها الى سنة ٧٥٩ ق م عند ما نهض ارباسيس قائد جيوش سردنقول ملك اشور واتحد مع ييلنر يس وهاجما تلك الثورة التي تقدمت عند ذكر مملكة اشور واقتسما البلاد

فبعد وفاة ارباسيس المذكور اقام الماديون عليهم ملكاً اسمه ديجوسيس وكان حكيماً عاقلاً يقضي بالعدل والاستقامة بين الجميع ولما استقر له الملك شرع في بناء مدينة عظيمة سماها اكباتانا قبل هي هذان وجعل لها سبعة اسوار متينة وحصينة بنوع ان كل سور من هذه الاسوار لا يعلو عن الثاني الا بمقدار شرفه فقط وكانت تختلف هذه الشرف في الالوان ما بين ابيض واسود وازرق واحمر وارجواني وكان السادس من فضة والسابع من ذهب وداخل السور السابع كانت سراية الملك ديجوسيس المذكور وقد صنع بها محلاً حصوناً

لحفظ خرائنه وكنوزه واما الشعب فكان يسكن بين الاسوار . وحكم ديجوسيس ٥٢ سنة من دون ان يقيم حرباً وكان مهيباً عند الجميع لانه لم يكن يتنازل لمخالطة الشعب ومجالسة الكبار بل كان يتعاطى اشغاله على انفراد وكانت الدعاوي تعرض عليه بالورق فكان يفضيها ويرسلها بانأ الحكم عليها . وكان له جواسيس في كل اطراف المملكة يلاحظون اعمال الرعايا ويقررون له عن احوالهم . وجلس بعده على تخت الملك ابنة فراورت فاقام حروباً عديدة واخضع لسلطنته بلاد فارس وجملة ما لك من اسيا ثم اقام الحصار على نينوى ولكن مع ضعف شعوبها في ذاك الوقت لم يتيسر له امتلاكها وقُتِل امام اسوارها مع جانب عظيم من جنوده وكانت مدة ملكه ١٢ سنة

ثم تولى بعده ابنة كياسار وكان محباً للحرب اكثر من ابيه وهو اول من شرع في ترتيب نظام العساكر فقسها الى فرق وصفوف كشاة وخيالة ورماة القوس فان هذا الترتيب لم يكن قبل ذلك بل كانت تختلط فرق العساكر بعضها مع بعض عند الحرب

ومن اشهر انتصارات هذا الملك افتتاحه مدينة نينوى وقد اخذ بشار ابيه من اهلها فاتنم منهم واستعبدهم ثم جال بجنوده واستولى على شمالي ما بين النهرين وجعل له مدخلا الى اسيا الصغرى فاخضعها واذلها واضافها الى ملكه ثم تقدم الى ما وراء نهر هاليس وحارب اللبيين وكان السبب في ذلك ان قسماً من السكيثيين كانوا قد قصدوه ملتجئين اليه قبلهم واحترمهم وعلى الخصوص لما رآهم يحسنون رمي السهام فامرهم ان يعملوا اولاد مادي لغتهم مع هذا الفن ووكّل اليهم مائدته الخاصة فكانوا يذهبون الى البرية في كل يوم ويصطادون له من الطيور والغزلان ويصنعونها طعاماً له فاتفق انهم خرجوا يوماً كعادتهم ورجعوا من الصيد ولم ياتوا بشيء واذا كان كياسار سريع الغضب عاملهم بقسوة شديدة فغضبوا منه وارادوا ان ياخذوا بشارهم فجاءوا باحد الاولاد الذين وُكِّل اليهم تعليمهم وتربيتهم وقطعوه وصنعوه طعاماً للملك كما

كانوا يصنعون بالصيد ووضعوه على مائدة وذهبوا حالاً الى بلاد ليديا واستغاثوا بملكها فاغاثهم ولما اكل كياكسار ومن عنده من ذلك الطعام المذكور وعلم بحقيقة الحال غضب غضباً شديداً وارسل يومئذ سفيراً الى ملك ليديا وكان اسمه آليات يطلب منه تسليم القوم فأبى وامتنع فخذ عليه كياكسار واضمر له السوء وزحف اليه مجتهد لينتقم منه ولما اقترب من تلك البلاد استقبله ملك ليديا بجيوشه وجنوده وانتشبت الحرب بينهم مدة خمسة ايام متوالية ولم يغلب احد . وفي اليوم السادس بينا كان القوم في اشد قتال انكسفت الشمس انكسافاً عظيماً وتحول نور النهار الى ظلمة دامسة حسبها كان اخبر عن ذلك طاليس الفيلسوف اليوناني الذي كان معدوداً من الحكماء السبعة وهو اول من اشتهر بين اليونان في علم الفلك والهندسة . ولما شاهد ملك مادي وملك ليديا تلك الحادثة المخيفة كفوا عن الحرب وعقدا صلحاً ولاجل تثبيت هذا الصلح وتأكيد عهد المحبة بين الطرفين زوج ملك ليديا ابنته بالامير استياج ابن الملك كياكسار وجعل وزراء الدولتين جراحاً خفيفة في ايديهم وشربوا بالتبادل الدم الذي جرى منها علامة للارتباط والتحاب حسب عادتهم في ذلك الزمان ثم رجع كياكسار الى بلاده ومات غيب ذلك وكانت مدة حكمه نحو اربعين سنة وخلفه ابنه استياج المذكور انفا سنة ٥٨٥ ق م

وكان قد ولد للملك استياج ابنة اسمها مندان فلما كبرت زوجها بكميز ملك فارس وكانت مملكة فارس يومئذ خاضعة للماديين . فحدث بعد ذلك بايام قليلة ان استياج راي حليماً وهو ان الكرمه التي كانت في بستانه خرجت من قصر ابنته المذكورة وامتدت غصونها حتى انها ظلت كل اقاليم اسيا فتمض من فراشه خائفاً مذعوراً وعند الصباح استدعى اليه السحرة وقص عليهم تلك الرؤيا فاجابوه ان ابنته مندان ستلد ابناً يحكم على جميع ممالك اسيا ويستولي على مملكة مادي ايضاً فراعته ذلك وتأثر من هذا الكلام واستدعى ابنته من بلاد فارس وحجزها عنده قاصداً اعدام الطفل الذي يولد منها ولم

بعض الاشهر قليلة حتى وضعت ولداً ذكراً فتمتحن استباح كلام السحرة ودعا
اليه رجالاً من خواص قواده يقال له ارباغوس وكان يعتقد عليه في جميع
اموره وقال له اريد منك الان ان تاخذ هذا الطفل الصغير الى بيتك وتقتله
وتستر قتله ولا تخالفني في هذا الامر فتندم ثم سلمه اياه وكانت امه قد البسته
ملابس فاخرة وثمينة فاخذه ارباغوس ورجع الى بيته حزيناً كثيراً واخبر
زوجته بما كان من امر استباح بخصوص الولد فقالت له ماذا عولت انت ان
تفعل قال قد اجبرت على قتله وانا اخاف ان قتله بيدي اكون قد سفكت
دماً برياً لاسيما انني من اهل الولد والامر الاعظم من ذلك هو ان الملك استباح
قد تقدم في السن وليس له ولد يرث سرير الملكة من بعده الا ابنته مندان ام
هذا الطفل فلا شك انها ستقتلي انتقاماً على قتلي ولدها ولكي اكون مطمئناً
من هذا القبيل فلجهر هذا الامر على غير يدي ثم انه استدعى اليه احد رعاة مواشي
استباح وكان اسمه مينارات واسم زوجته سباكو التي معناها كلبة في اللغة المادية
وقال له قد امرني الملك ان اقول لك ان تاخذ هذا الطفل وتلقيه على اوعر
الجبال ليهلك ويموت واعلم يميناً انك اذا ابقينه حياً سيميتك في الحال باشنع
مينته فاخذ مينارات الولد ورجع الى بيته واتفق ان زوجته ولدت في ذلك
اليوم ابناً مينا وكانت في قلق واضطراب عظيم عند ما استدعى ارباغوس
زوجها اليه اذ لم يكن له عادة ان يستدعيه فلما رجع اليها واعلمها بواقعة الحال
توسلت اليه ان لا يقتل الولد فقال لا بد من قتله لان ارباغوس سوف يرسل
اناساً ليكشفوا له الخبر فيقتلي فقالت له انا ادير لك طريقة مناسبة ثقيك من
هذا الخطر قال وما هي قالت اني قد ولدت ابناً مينا فخذوه وضعوه على بعض
الجبال ونحن نربي ابن مندان ابنة الملك استباح كابننا وبهذه الوساطة لا يقدر
احد ان يقول لك انك خالفت امر ساداتك ويكون لنا بذلك حظ وافر
وشرف رفيع فاستصوب الراعي راي زوجته ودفع اليها الولد ووضع ابنة الميت
في سرير ذلك الامير الصغير مع كل ما كان عليه من الثياب النفيسة واخذه

الى جبل عال . والقاء هناك ورجع فاخبر ارباغوس بانها قد تم كل ما امره به فترسل ارباغوس من يعتمد عليه ليتحقق ذلك ولما علم بموته امر بدفنه واما الامير الصغير فربته سباكو زوجة الراعي ودعت اسمه كورش . فهذا هو الملك كورش المشهور الذي شاع ذكره في تلك القرون وتغلب على ممالك كثيرة وافتتح مدناً حصينة وهو كسرى الاول من ملوك الفرس

فنشأ كورش ولدًا نجيبًا وكان يلعب مع اولاد تلك القرية التي ربي فيها فلما بلغ سن العشر اخذته الاولاد رئيسًا عليهم فكان يحكم بينهم ويمجري اوامره عليهم ويقيم منهم حراسًا على بلاطه الوهي حسب عوائد الملوك ويختار منهم قوادًا ونظارًا ويقدرهم الوظائف والمصالح وينظم بعضهم في زمرة جنود وعساكر واعوان وكان احيانًا يامر على بعضهم بالضرب وبعضهم بالحبس ويقول قد حكمت بذلك وكان من جملة الاولاد غلام من اهل اشراف مادي فاتفق انه رقص بعض اوامر كورش فامر الاولاد ان يقبضوا عليه واخذ بضربه بالعصا ضربًا مولمًا فذهب الغلام الى المدينة واخبر ابيه بما فعل به ابن الراعي فغضب ابيه جدًا واخذ ابنه واجتمع بالملك استباج وقص عليه تلك القصة واره اثار الضرب على اكتاف ابنه فبعث الملك رسولًا ياتي له بميمرات الراعي وابنه . فلما مثلا بين يديه قال الملك لكورش ناظرًا اليه بعين الاحتقار كيف تجاسرت ان ترفع يدك وتضرب من هو اعظم واشرف منك فاجابه كورش وقال يا مولاي اني لم افعل ذلك الا بالعدل والانصاف لانه كما لا يخفى على عظمتك ان اولاد القرية الذين كانت بينهم هذا السيد الشريف اقاموني ماسكًا عليهم لما كانوا يلعبون وفوضوا الي امرهم وكانوا كلهم يطيعون اوامري وانا انصف بينهم ولما كان هذا الغلام قد خالف شروط التهنيت والقوانين بعصيانه وعدم امتثاله لاوامري واحكامي قاصصته على مخالفتي فاذا كانت ذلك ذنبًا يستحق العقاب ايها الملك فما انا بين يديك من جملة العبيد فافعل بي ما تريد فلما سمع الملك هذا الكلام واحقق جيدًا بالولد اندهش وحار من

سرعة جوابه وعدوبة كلامه وعرف انه ابن مندان ابنته لانه كان اشبه الناس
 بها ولا سيما ان عمره كان موافقا لتلك الحادثة التي ذكرناها فلبث برهة لم
 ينكم ثم امر بادخال كورش الى البلاط واستدعى الراعي اليه وسأله على انفراد
 من اين اخذ الولد ومن استلمه فاجاب انه ابوه وان امه حية فتهدده بالكلام
 فافقر الراعي بما كان واعاد عليه القصة من اولها الى آخرها ولما وقف استباح
 على الحقيقة لم يحاسب على الراعي ولكنه غضب على القائد ارباغوس فامر حراسته
 ان ياتوا به حالا فلما اتى قال له اعلمي الحقيقة ماذا فعلت بالولد الذي دفعته
 اليك لتتيته فافقر ارباغوس بما كان ولم يكتم عنه شيئا خوفا من العواقب فسكن
 الملك ارتعاشه وقال له ان الولد باق في قيد الحياة ثم قال يا ارباغوس
 ان صبيعت هذا قد سرني جدا لان ابنتي كانت قد عتقتني على ذلك فقدمت
 على ما صدر مني واذ ذاك سأعتني من الآن وصاعدا بربيته وتهذيبه فارسل
 ابنك الآن الى داري ليلعب معه ويواسيه وانت تعال في هذه الليلة ونشئ
 معي فاني اريد ان اقدم تقديما للآلهة شكرا لهم لانهم رحموني وردوا علي
 حبيدي بالسلامة

فشكر ارباغوس الملك على ملاظنته له وارسل ابنه في الحال الى البلاط
 وكان وحيدا وله من العمر ثلث عشرة سنة . فلما رآه الملك امر الخدام بذبح
 وان يقطعوا لحمه ويطبخوه ويحملوا منه الواثا مختلفة من الطعام ويضعوها
 وقت العشاء امام ابيه ارباغوس وان يضعوا الراس والرجلين في سلة منظفة
 وينردوها في ناحية لوقت الطلب فامثلوا امره وذبحوا الغلام وبارشوا في امر
 الولية وهياوا كل شيء فلما حان وقت العشاء اتى المدعوون ومعهم ارباغوس
 وعند جلوسهم على المائدة قدموا الى استباح والباقيين الاطعمة المطبوخة من
 لحوم الضان والطيور والى ارباغوس لحم ابنه فاكل وهو لا يعلم ولما فرغوا من
 الطعام قال الملك كيف رايت هذا العشاء فاجابه انه سر به احسن سرور
 فامر حينئذ الخدام ان ياتوا بتلك السلة ويضعوها امام ارباغوس فاحضرودا

ووضعوها امامه فقال له الملك ارفع غطاءها فرفع عنها الغطاء واذا به يرى من داخلها بقايا ابنه فانكسر قلبه واقشعر جسمه وغاب عن الصواب ولكنه اظهر الجلد واخفى حزنه وغمه وقال ان كل ما صنعه الملك هو مقبول لديه ثم رجع الى بيته حزينا كئيبا ودفن عظام ابنه

وكان استياج قد صفح عن قتل كورش وارسله من ذلك اليوم الى اهله في بلاد فارس وكان ابواه كمينين ومندان قد ظنوا انه مات فلما اشرف عليها واخبرها بواقعة الحال وكيف رتبته سباكو زوجة راعي البقر التي لم يزل يشكر فضلها ولا ينس معروفيها كل مدة حياته فرحا بسلامته . وكان كورش ينمو في القامة والقوة والجسارة حتى صار من انجب شبان عصره وانهم

الباب الثاني

في اصل الاعجام وتدمير كورش مملكة بابل ومغازيه المشهورة وموته

اصل شعوب الفرس من ذرية عيلام بن سام بن نوح وكانوا يدعون عيلاميين نسبة الى عيلام المذكور ولكننا لانعلم من امرهم شيئا واضحا الا بعد مضي نحو الف وثمانماية سنة من الطوفان وذلك من وقت ظهور الملك كورش المذكور

وكان ارباغوس المقدم ذكره يترقب الفرص لياخذ بثار من استياج الذي قتل والده واطعمه من لحمه فاخذ يسعى في هلاكه ويدبر على انقراض مملكته بواسطة تهيج وزراء الدولة عليه بالدسائس الخفية فراسل كورش سرا وحثه على النهوض لاختاد بلاد مادي ووعدته بالمساعدة والامداد واذا كان

بخاف من وقوع رسائله بين ايدي المحافظين والحراس وانكشف امره كان
يأتي بالارنب ويشق بطنه بدون ان يجز صوفة ويضع الكتاب في جوفه ثم
يخيطه ويلقيه في شبكة ويعطيه لاحد خدائه الذي يثق به حتى كل من براه
لا يشك بانه من جماعة الصيادين ثم بامر ان يذهب به الى كورش على
تلك الصورة

وكان كورش في تلك الايام قد عظم شأنه وارتفع مكانه واحترمه جميع
اهالي فارس نظراً لنجابته وعلو همة فلما وقف على رسائل ارباغوس اخذ
يستميل قلوب عظماء الاعجم اليه ويحثهم وينهض منهم ليوافقه على قتال
الماديين واستخلاص ملكة الفرس من حكمهم فاجابوه الى ذلك لانهم كانوا
يريدون الاستقلال والتخلص من جورهم وظلمهم وفي ايام يسيرة انضمت اليه
القبائل والطوائف واخذ يجمع الجيوش والعساكر حتى صار عنده جيش
عظيم من الفرسان والشمعان

ولما بلغ الملك استيلاج ذلك الخبر ارتاب وخاف عاقبة الامر فارسل
بعض معتمديه الى كورش يستدعيه اليه على سبيل الزيارة فاجاب كورش
وقال لذلك الرسول ارجع الى مولاك وقل له يقول لك كورش انه سيذورك
عن قريب بالابطال والفرسان واعيان الفرس فلما وقف استيلاج على هذا
الخطاب تجذر من ذلك اليوم فجمع الجيوش والجنود وجعل ضباط المشاة
والخيالة تحت قيادة ارباغوس

واما كورش فانه بعد ذلك الكلام الذي كان قد ارسله الى الملك استيلاج
بايام يسيرة زحف اليه بمجموعه وابطاله فلما تقابل الجمعان وانتشبت
الحرب بين الفريقين فالعساكر الذين لم يكن ارباغوس اعلمهم بمقاصده حاربوا
بشجاعة وبسالة بخلاف الاخرين فانهم تاخروا عن القتال وانضم بعضهم
الى صفوف الاعداء وكان ذلك يوماً عظيماً بين القوم اشتد فيه القتال واتسع
المجال وسفكت الدماء وكان قد داخل الفرس الحامية فقاتلوا بقوة ونشاط

وانعطفوا على اعلائهم فكسروهم وهزموهم بعد ان قتلوا منهم عدداً كثيراً واسروا
 جمعاً غفيراً وكان من حملة الماسورين الملك استياج فبقي في اسر كورش الى ان
 مات وكانت مدة ملكه ٢٥ سنة

وبعد وفاة استياج تنوأ تخت ملك مادي ابنه كباكسار الثاني وهو
 داربوس المادي خال كورش فكان كورش ملكاً على فارس تخت يده وقائد
 جيوش كل بلاد مادي وكان صاحب الامر والنهي مكرماً ومهاباً عند
 الجميع ولم يكن لداربوس من الولاية والسلطنة الا مجرد الاسم فقط وجميع
 الامور بيد كورش

وكانت مدة ولاية داربوس على بابل نحو ستين وبعد وفاته اخلس الملكة
 رجل من اشراف بابل يدعى نابونادبوس وكان كورش ابن اخت داربوس
 يومئذ ملتهباً في حروبه وافتتاحاته ماله اسيا فلما اتصل اليه ذلك الخبر
 حول وجهه نحو بابل ليستقم من ذلك الخلس واحاط بها بجيوشه مدة ستين
 ولم يقدر عليها لتحصينها بأسوار مرتفعة وقوية حتى كان هدمها وافتتاحها من
 اصعب الامور وماذا تفعل الشجاعة او الأدوات الحربية كالنجنيق وغيره في سور
 عرضة ثلثون قدماً او خمسون على قول البعض فكان السبل الوحيد للدخول
 الى المدينة هو تحويل نهر الفرات عن مجراه فانه كان يمر في وسط بابل ويقسمها
 الى شطرين . فاعتمد على هذا العمل سرّاً وامر بفتح ترع وخليجان كبيرة حول
 المدينة ولما تمت اختار وقتاً مناسباً لاتمام مفاصده فامر بفتح المنافذ التي يصب
 النهر والترع المذكورة آنفاً فتحولت كل مياه الفرات الى تلك الخليجان وصار
 النهر ارضاً يابسة فدخلت عساكر الفرس وكورش في مقدمتهم بعضهم من
 عند مدخل النهر والبعض من عند مخرجه منها وهجموا على اهل المدينة بقتة
 وقتكواهم فتكاً عظيماً فكانت ساعة مهولة لم يُعرف فيها صوت العدو من
 صوت الصديق فاستولى كورش على المدينة وامتلكتها واذ لم يكن لداربوس
 المذكور اولاد ورث كورش من خاله ملكني مادي وبابل وضماها الى مملكة

فارس وصارت هذه الممالك من ذلك الوقت مملكة واحدة تحت تسلط كورش .
 وظن اكثر المؤرخين القدماء ان افتتاح كورش مدينة بابل كان في زمن الملك
 بلشاصر غير انه قد ظهر وتحقق من الاكتشافات الحديثة انه بعد موت بلشاصر
 المذكور تناوب كرسي المملكة ابنه لابورا سوارخاد وحكم مدة سنة واحدة فلو كان
 كورش قد افتتح بابل في ايام بلشاصر لما سمح لابنه ان يملك بعده بل كان من
 باب اولي ان يقيم خاله داربوس ملكاً بعد افتتاح المدينة وهذه دلالة قوية
 تؤيد صحة ما اورده

وكان الملك كورش موفقاً منصوراً في جميع وقائعه فاخضع الفريثيين
 وجميع البلاد التي بين النهرين وارمينيا وسورية واسيا الصغرى وجانباً عظيماً
 من بلاد العرب وضرب الخراج على ملوكها وولايتها وكان قد عبر بحيشه الجرار
 نهري دجلة والفرات وجعل معسكره في اقليتي خوزستان والعراق . ومن
 جملة انتصاراته العظيمة استيلاؤه على مملكة ليديا واذلاله ملكها كريسوس الذي
 كان افتتح جملة ولايات في اسيا

ولكن اذ لم يكن للانسان دوام ولو لها ساد وظفر انتهت حياة كورش
 في حرب اقامها على السكيثيين المعروفين الآن بالنتر القاطنين تجاه بحر الخزر
 فالتفت المملكت طوميريس بجيوشها وابطالها وحدث بين الفريقين قتال شديد
 قتل فيه ابن هذه المملكت وكانت الدائرة على الفرس فانهمزوا اقبح هزيمة واسر
 منهم عدد كثير وكان من جملة المأسورين الملك كورش فقتله المملكت بولدها
 وكانت مدة ملكه ٣٠ سنة

الباب الثالث

في ولاية الملك كمبيز بن كورش وقد سمي نفسه بمختصر الثاني
 ثم جلس بعد كورش على سرير المملكة ابنه كمبيز وكان عاتياً جتاً جافي

الطبع سفاكاً للدماء عدم الشفقة محباً للحروب وافتتاح الممالك مغرمًا بشرب
الخمر وما يحكى عنه أنه طلب يوماً من احد ندمائه المسمى بركراسيس على ان
يخبره بما تقول الناس عنه فقال له انهم يدحون احكامك وحسن اوصافك
ويرون انه لا عيب فيك الا الانهاك بالخمر ولولا ذلك لفضلوك على جميع
الناس ثم اخذ ينصحه ويبين له الاضرار الناجمة من ادمان المسكرات فلما سمع
كميز كلامه غضب وطلب ان يؤتى اليه بكمية وافرة من الخمر فشرب منها
مقداراً كثيراً ثم امر باحضار ابن بركراسيس وامره ان يقف في آخر القاعة وقال
لايه اريد ان تعلم الآن ان كانت الخمر قد اضعفت بصري او غيبت فكري
وارجفت يدي ثم طلب قوساً ونشاباً ورمى الولد بهم في فواده فوق قتيلاً
وقد ذكرنا هذه القصة المحزنة واثنينا هنا اولاً لصحتها وثانياً ليتخذ القاري
والسامع الامثلة المفيدة من جهة تعاسة تلك العصور المظلمة وسعادة هذه الايام
المتنورة التي يبذل فيها الملوك غاية العناية والهبة في نجاح امور شعوبهم ورعاياهم
ومعاملتهم لم كمين وليس كمبهد وهذه المعاملات الحسنة ليست ناتجة الا من
نور الديانة التي تامر بان تعامل الناس كما نريد نحن ان يعاملونا

وكانت افكار كميز ومفاصلة منجحة نحو افتتاح بلاد مصر في زمن
فرعون اماسيس وقد نقل المؤرخون في شان ذلك اخباراً مختلفة فمما ان
اماسيس المذكور كان قد تمرد على الدولة الفارسية وعصى عليها واستقل بالملكة
بعد ان كان قد افتتحها الملك نبوخذ نصر الاول واقام عليها عمالاً ويقال ان
الذي حمله على ذلك رجل يوناني اسمه فانيس كان قائم جيوش اماسيس
وكان قد حدث بينه وبين موته نزاع ونفور فحقد عليه وانتهر هذه الفرصة
وقصد الملك كميز واغراه بقتال اماسيس وافتتاح المملكة المصرية واثار
عليه ان يخاطب ملك العرب ويطلب اليه المساعدة والامداد يجلب الماء الى
العساكر في البرية التي كان مزعماً ان يمر بها فارسل كميز رسلاً الى ملك
العرب يطلب اليه المعونة على قطع تلك القلوات الشاسعة وعاهدة بقسم انه

يكون له صديقاً واميناً كل ايام حياته فتعاهد الاثنان على ذلك وتحالفا على عدم الخيانة ونقض العهد وبعد ذلك جهز كميز الجيوش وقادها بنفسه وزحف قاصداً الديار المصرية وارسل ملك العرب يومئذ كل الجمال الموجودة في مملكته الى البرية محملة زقاقاً مملوء ماء

وفي اثناء ذلك توفي فرعون اماسيس ملك مصر وتولى مكانه ابنه سمانيتوس فلما بلغه قدوم كميز اليه جهز جيوشاً لمقاومته فالتقى جيش الفرس وجيش مصر عند مصب النيل الشرقي في مكان يدعى سين واشتبك القتال بين الفريقين واشتدت بينهم الحرب وكان يوماً هائلاً قتل فيه من الطرفين عدد كبير فانتصرت الفرس انتصاراً عظيماً وانهمز الجيش المصري بخسارة جسيمة الى مدينة منيس فتبعهم كميز بجيوش فارس الى هناك وحاصر المدينة وافتتحها عنوة بعد وقائع وهجمات هائلة وقبض على سمانيتوس وقتله وابنته معاً

وقال هيرودونس في تاريخه اني رايت في الميدان الذي وقعت فيه الحرب الاولى عند مصب النيل الشرقي عظام الذين قتلوا في ذلك اليوم مكدمة من كل جهة فكانت حجاجم الفرس لينة بهذا المقدار حتى انها كانت تثقب بوقع حجر صغير واما حجاجم المصريين فكانت صلبة لا تكسر ولا بضربة حجر كبير فسالت عن السبب فقيل لي ان المصريين يحملون شعور رؤوسهم وهم صفار السن فتشدد الحجمة وتصلب بواسطة حرارة الشمس واما الفرس فلم يعتادوا ذلك فبقيت جهاجمهم ضعيفة لينة

واذ كان كميز يعلم ان المصريين يعظمون الكلاب والهرر ويوقرونها ويعتبرونها كالمه امر بجمع كل الكلاب والهرر التي في تلك النواحي ووضعها في مقدمة العسكر عند حصاره بعض المدن المصرية فتوقف المصريون عن اطلاق نبالهم على الفرس خوفاً من ان يصيبوا احدي تلك الحيوانات المقدسة فموت ولبثوا في اماكنهم مخاربن وكانت الفرس تقدم عليهم رويداً رويداً والكلاب تنج والهرار تنوء حتى دخلوا المدينة وتملكوها بدون مقاومة

ولما اخضع كميز كل بلاد مصر قصد مدينة هائيس التي فيها مدائن ملوك مصر فاخرج جنة الملك اماسيس من قبرها وهو الملك الذي كان متولياً على مصر عند ما تمض لخاربتو وبعد ان ضربها بالعصا وعاملها بكل نوع من الاهانة والتعير امر بطرحها في النار فاحترقت في الحال وكان ذلك مضاداً لعوائد الفرس والمصريين جميعاً . وكان قد نهب مدينة تيبس في بلاد والصعيد وهدم ابراجها وهياكلها واحرق نفوشها وختم ذلك بذبح الثور ايس الذي هو بحسب اعتقاد المصريين الاله المعظم وفرق لحمه على قواد عسكره فكان هذا العمل ما يعد عند المصريين من التعمديات الكفرية ومن ذلك الوقت لم يكن افعال هذا الملك الا ذميمة قبيحة حتى انه تزوج باخته وقتل اخاه سمرديس ثم قتل زوجته المذكورة حيث كانت تندب اخاها الى غير ذلك من الامور الوحشية

وفي آخر ايامه في مصر حدثت فتنة عظيمة في بلاد فارس وهي ان النائب الذي كان قد اقامه كميز وكيلاً عنه على الملكة في غيابه طمع في اخلاص الملك وعهد ان ينقله الى عائلته فاقام اخاه ملكاً وكان من السحرة واشبه الناس بسمرديس اخي كميز الذي قتله كما ذكرنا فبايعه الفرس وملكوه عليهم لثقتهم بانه ابن كورش اذ كان قد ادعى بذلك فلما بلغ كميز هذا الخبر خرج من مصر بعد ان صيرها ولاية فارسية ودخل بلاد سورية وشرع قاصداً بلاد فارس فانفق يوماً انه وهو يركب جواده اندلق سيفه من غمده فجرحه في جنبه جرحاً بليفاً والزمه فرائضة فات بعد ايام قليلة بعد ان حكم مصر خمس سنين وكانت مدة ملكه سبع سنين ونصفاً

الباب الرابع

في ولاية الملك داريوس وهو دارا الاول احد ملوك
الفرس وابنه زركسيس

وكان قد تولى على نخت فارس ذلك الساحر المذكور الذي ادعى انه
سمرديس ابن كورش كما مر الا انه لم تطل مدته حتى انكشف امره وتحقق
عند اكثر الاهالي ان تلك الدعوى كانت حيلة منه وان ولايته لم تكن الا مجرد
خداع وطغيان فانفقوا على خلعه واجتمع ستة انفار من اكابر اعيانهم منهم
داريوس بن هيسنسب احد امراء تلك الولايات وهجموا على قصر الملك وقتلوا
سمرديس الساحر المقتصب ولم يحكم الا سنة اشهر فقط ثم اختلف هؤلاء الاعيان
السنة في من يتولى منهم زمان الملكة الفارسية فانفق رايهم اخيرا على ان يركبوا
خيولهم عند الصباح ويقصدوا مكانا معلوما خارج المدينة وان الرجل الذي
يصل حصانه اولاً يكون هو الملك وبهذه الوسيلة لا يقع بينهم نزاع . وكان
لداريوس سائس نبيه ماهر فلما بلغه ذلك الخبر لبث حتى اظلم الليل ثم نهض
وركب حصان مولاه واخذ معه جانباً من العشب والاطعمة التي كان الحصان
يود أكلها وقصد ذلك المكان المذكور والبقاها هناك ثم جعل يجول نحوها
بالحصان نارة من خلف ونارة من قدام واستمر على مثل مثل ذلك نحو نصف
ساعة ثم نزل عن ظهر الحصان واطلقه على تلك الاطعمة فاكلها ثم ارتد راجعاً
الى المدينة ولم يطعم الحصان شيئاً طول ذلك الليل . ولما كان الصباح ركب
الامراء الستة خيولهم حسب الشروط الذي وقع عليه الاتفاق وقصدوا ذلك
المكان المهود الذي اكل فيه حصان داريوس تلك الاطعمة وعند وصولهم
اليه رفع الحصان اذنيه وصهل فترجل حينئذ اصحاب داريوس الخمسة وخروا

ساجدين عند قدميه وهنأوه بالمنصب الملكي واقاموه يومئذ ملكاً على سلطنة
الفرس

وكان الملك كورش وابنه كبير قد حسنا هذه الملكة ووسعاهما ونظما
امورها في اقل من عشرين سنة فلما اتسعت اقاليمها وتكاثرت مقاطعاتها قسمها
داريوس الى عشرين كورة وصرف ثمنه وعنايته ليمهد لها اسباب الثروة والغنى
بواسطة اساع دوائر التجارة بين بلاد الفرس وباقي الممالك واقام داريوس
حروباً كثيرة افتتح في احداها مدينة بابل ثانية لان اهلها كانوا قد تردوا
وعصوا الفرس وكان افتتاح هذه المدينة بطريقة عجيبة احتمالية وهي ان احد
قواد جيوشه زوير اخذق اهل زمانه وانبيهم قطع يوماً اذنه وهشم وجهه
بالمجراحات وذهب الى بابل واستغاث باهلها من جور داريوس الذي كان
يومئذ يحاصر المدينة فسالوه عن سبب ذلك فاخبرهم انه من جملة قواد
الفرس وانه عند ما فتح داريوس ونهاه ان يرجع عن حرب بابل لانها
حصينة جداً احفره وامانه بقطع اذنه ونهشم وجهه وقد كاد يقتله فهرب ليلاً
واقسم على نفسه انه لا بد له ان يسعى في اهلاك الفرس . فترحب به اهل بابل
واقاموه قائداً على فرقة صغيرة . وكان زوير قد اتفق مع داريوس ان يرسل
له في اول الامر طليعة مؤلفة من الف نفر من اوباش النجم وصعايكا لتجسس
على المدينة من احدى جهاتها وانه يخرج اليها ويحويها كلها ثم يرسل له في
اليوم الثاني كتيبة اخرى تحوي على الف مقاتل فيهلكها ايضاً ثم يرسل اليه في
اليوم الثالث فرقة اخرى مؤلفة من اربعة الاف فيلقها برفقائها وبعد ذلك
يهجم هو بنفسه على المدينة بجميع عساكره وابطال هبة واحدة فيسله اياها .
ففعل داريوس كل ما اشار به زوير وكان البابليون عند ما راوا زوير
قد فتك بطلائع الفرس في ثلاث وقائع متتابعة وقتل سبعة الاف نفر من
الاعجم احبوه واتمنوه واقاموه رئيساً عاماً على جيوشهم وسلموه زمام محافظة
المدينة فلما كان اليوم الرابع هجمت جموع الفرس على المدينة واحاطوا بها

فخرج اليهم زويير ولكنه عوض ان يقاتلهم ويصدهم فتح لهم الطريق للدخول
فدخلوا وامنكوها على اهلون سبيل بعد ما حاصروها ستة عشر شهرا

ومن حروب داريوس ايضا حربه مع السكيثيين الذين قتلوا الملك
كورش وبعد عدة وقائع هائلة ارتد راجعا مهزوما وقتل من عسكره عدد كثير.
ثم حارب بلاد الهند وافتتح منها جانباً . وكان هذا الملك قاضي الثواب سفاكا
للدماء وما يحكي عن قساوته انه بينما كان منجھرا لقتال السكيثيين المذكورين
الزم رجلاً عاجزاً ان يقدم اولاده الثلاثة للعسكرية واذ لم يكن للرجل اولاد
غيرهم توسل اليه ان يني له واحداً منهم ليعينه على ضعفه وعجزه لانه كان فقيراً
جناً فاجابه داريوس قائلاً ما دام الامر كذلك يجب علينا ان نبني لك
اولادك الثلاثة ليعولوك في ضعفك ثم امر احد اتباعه بذبح اولاد ذلك الرجل
المسكين وان ياتي برؤوسهم الى والدهم

وكان داريوس قد ارسل جيشاً جراراً تحت قيادة دانيس وارثا فرنيس
لحاربة اليونان وبعد وقائع وحروب شديدة انهزموا اقمج هزيمة وفقد من عسكرها
نحو مائتي الف ولما بلغه خبر هذه الكسرة اشتد غضبه واخذ يجند الجنود ويجهز
الجيوش ليقيم حرباً على اليونانيين وعلى المصريين الذين كانوا قد خاضوا طاعته
واظهروا العصيان وبينما كان مهتماً بهذا الامر مرض ومات سنة ٤٨٠ ق م

وبعد موت داريوس خلفه ابنه زركسيس وهو الملك الخامس من ملوك
فارس ومادي تبوأ تحت الملك عوض اخيه الاكبر ارطيزان وعند جلوسه على
كرسي السلطنة ارسل جيشاً الى الديار المصرية فاخضعها وعاقب ارباب الثروة
عقاباً بالياً ولما انتادت مصر لحكمه جهز جيشاً عرمرماً مؤلفاً من مليونين من
الخيالة والمشاة وزحف بنفسه الى تخاربه اليونان ليم مقصد ابيه الذي كان
قد عول عليه واصعب معه بوارج كثيرة العدد واذ كان لا بد له ان يجتاز
نوغاز الدردنيل الفاصل بين اسيا واوروبا الذي يبلغ عرضه مسافة نصف
ساعة تقريباً امر بصف مراكبه على شكل جسر بين البرين وربط بعضها ببعض

لاجل مرور العساكر فهاجت الامواج وكسرتها فساء الملك زركسيس ذلك الامر وامر بضرب البحر لاجل عدم توقيره او امره وبعد مشقات عظيمة وحروب شديدة اخضع اكثر مدن اليونانيين ما عدا سبارتا واثينا فانها مع كل ضعفها وقلة عساكرها قاومتاه اشد مقاومة لان شعبها كان من اشجع الناس . ولما اقترب زركسيس من ليكوستوموس الذي ترجمته ثم الذئب وهو معبر ضيق بين الجبل والبحر وصم ان يعبره اعترضه ملك سبارتا المدعو ليونيداس بستة الاف مقاتل وحاربة وفك بعسكره فتكا عظيما وقتل منهم نحو سبعين الف نفر واذ كان عسكر الفرس كثير العدد لانهاية له خافت جموع اليونان من عاقبة الامر فصرفهم ليونيداس الى اماكنهم وبقي هو مع ثلثماية نفر ماسكا راس ذلك المضيق المسمى ثرموبيلي واخيرا هلك هو ومن معه ولم يسلم من جيشه الا رجل واحد فقط فذهب الى سبارتا واخبر اهله بما جرى على اصحابه

اما انتصارات زركسيس فلم تطل في بلاد اليونان فان اكثر مراكزه انكسرت في سلاميس وعساكره انهزمت في حصار مدينة بلاتيا فاذا طر اخيرا الى ان يرجع مع من بقي معه من الجيش الى بلاد فارس وعند وصوله قتله ارطبانيس رئيس حراسه وكان ذلك في سنة ٧٠ ق م

وبعد وفاة زركسيس تولى ابنه ارتكزر زركسيس ثم تولى بعده داريوس قدماؤس ثم غيره من الملوك ما لا يسعنا ذكرهم في هذا المختصر وبقيت ملوكهم تتوارث الملك الواحد بعد الاخر الى سنة ٣٣٠ ق م عند ما قام اسكندر المقدوني في حكم الملك داريوس الثاني فخاربه واستظهر عليه ونقلب على جميع البلاد والاقاليم الخاضعة للفرس كاسيا الصغرى وصور ومصر وانتهى الحال بداريوس انه في بعض حروبه مع اسكندر انهزمت الفرس وقتل منها خلق كثير وكان هو من جملة المهزمين فاقتفى اسكندر اثره ليعلم خبره فوجده قتيلا وكان قاتله رجلا من اكابر قواده فحزن عليه اسكندر ونأسف على فقده

واقام له مسلات شهيرة في جملة اماكن تذكاراته . وبعد وفاة اسكندر وقعت بلاد العجم في نصب سلوقس احد قواد جيوش اسكندر وصارت بعده في قبضة ذريته الى ان تمض الفريثيون وطردها اليونانيون من بلاد فارس ومادي ونالوا عليها نحو خمماية سنة

الباب الخامس

في اكاسرة العجم

وفي سنة ٢٢٠ مسيحية وثب رجل من الاعجم يقال له اردشير ففتح الاهالي وحارب الفريثيين وطردهم واستقل بالملكة وهو اول الطبقة الساسانية ورأسها وهذه الطبقة هي الرابعة من ملوك الفرس المعروفين باكاسرة العجم واسم اردشير مركب من كلمتين فارسيتين احدها ايرد بمعنى الغضب والثانيها شير اسم الاسد فسمي الملك بهذا المركب ومعناه اسد الغضب

ثم تولى بعده ابنة سابور وهو غير سابور ذي الاكتاف الذي هو ناسع الاكاسرة بعد اردشير واسمها بالفارسية شابور بالشين مركب من شايخنصر شاه بمعنى سلطان او ملك وبور بمعنى ولد يعني ولد السلطان فعرفت العرب بلفظ سابور بالسين المهلة . كان ملكا عظيما شديد البأس كثير المغازي والغارات ذا سطوة قاهرة حارب الديار الشامية واخضعها وحاصر مدينة انطاكية وكان بها يومئذ فاليريانوس احد قباصرة رومية فافتحمها عليه واسره وسار به الى بلاده وبقي في اسره الى ان فدى نفسه باموال كثيرة . واما سابور ذو الاكتاف فهو بعد سابور هذا بنحو اربعين سنة وانما سمي ذا الاكتاف

لأنه لما حارب عرب الحجاز وظفرتهم كان كلما أسرا عرايياً يثقب كنفه ويدخل فيه حبلاً ليفوده فسي ذا الأكناف وصار لقباً عليه وكان قد حارب الرومانيين من زمن مكسيمينوس الثاني الى زمن طمودوسوس الأكبر ونجح في أكثر حروبه معهم . وما يدل على انتظام ملكة العجم وقوتها وشوكتها في أيامها أنها استمرت منذ ولادته الى زمن وفاته مدة اثنين وسبعين سنة ولم يحصل فيها فتن ولا نزاع ولا حروب

وتولى بعده جملة من الملوك الى سنة ٥٨٠ للمسيح تقريباً ومن هؤلاء الأكاسرة كسرى انوشروان وهو من أشهرهم وأعظم ملوكهم كان ملكاً عادلاً عاقلاً مهيئاً محسناً ومن كثرة عدله وشفقته على رعاياه من الظلم والعدوان أمر بوضع سلسلة نافذة من سرايته الى الطريق وجعل فيها اجراساً فكان كل رجل مظلوم يأتي ويحرك السلسلة فتدق الاجراس فيعلم به ويأمر باحضاره اليه وينصفه ولذلك كثر العدل والامان في أيامه . وهو الذي صادم الرومانيين واقام عليهم حروباً كثيرة واستولى على أكثر ولاياتهم في اسيا فهاينة الملوك ومهادون بالمدايا النفيسة وكان قد ورد عليه رسول قيصر امبراطور الروم يدابا ونحت ثمينة فظفر الى ابراهو وحسن بنائه فاندشش وتعجب وكان قد رأى فيه اعوجاجاً فسأل عن سبب ذلك فقال له بعض الوزراء ان عجراً كان لها مثل بجانب هذا الاعوجاج فرغبها الملك في الثمن فابت يعة ولم ينصفها عليه وبقي الاعوجاج من ذلك على ما ترى . وكانت مدة حكم كسرى انوشروان نحو اربعين سنة وقيل أكثر

ثم تولى بعده ابنه هرمز وكان عادلاً كايه ينصف الخبير من الشريف ولا يميالي بالوجوه وكان قد صنع صندوقاً وجعل فيه شقاً ليلقي المتظلم قصته فيه وكان يختم قفل الصندوق بخاتمه لئلا تصل اليه ابدي وزرائه وكان الحجاب ياخذون ذاك الصندوق في كل صباح ويلقونه على مفارق الطرق وينادون باعلى اصواتهم قائلين كل من له دعوى او كلام يرفعه الى الملك

فليكنه على رفعة وبلقيه في هذا الصندوق من هذا الشق . وفي السنة العاشرة من ملكه زحف اليه طيباريوس قيصر في ثمانين الف فارس فخاف هرمز من عواقب الامر واحضر اليه قائدا له بملكة الري يقال له بهرام وكان ثجاء مقداما وبطلا هاما واعده لقتال اعدائه فانصر جند طيباريوس على جند فارس في حمله وقائع ثم تصالحوا . وكان بهرام المذكور قد اتخذ له حزبا واعوانا من رجال المملكة حتى صار في صولة وسطوة عظيمة فخاف هرمز على ملكه من بهرام وحسب حسابه وجرى بينها قتال وكان الجند من حزب بهرام وكان ابرويز بن هرمز يومئذ مطرودا من ابيه مقيما باذربيجان فلما بلغه ضعف امر ابيه خاف من استيلاء بهرام على الملك فقصدا اياه واسكبه وقلع عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك وجرى بينه وبين بهرام عدة وقائع واخيرا تغلب بهرام على اقطار المملكة ولبس التاج . واذ خاف ابرويز من ان بهرام يعيد والده الاعى ملكا موقفا الى ان يكون قد تمكن من الملك اتفق مع خواصه على قتل ابيه هرمز فخنقه وقصد ملك الروم موريكيوس مستنجدا به على بهرام ولما اجتمع به واعلمه بواقعة الحال لامة قيصر على ما فعل بابيه اولاً وثانياً ولكنه انف من ان يرده خائبا فارسل ليجدته جيشا جرارا ولم تزل الحرب بينه وبين بهرام ثلاث سنين متتابعة وانتهت بانتصار ابرويز على بهرام وعاد ملك الفرس الى ابرويز فانعم على عسكر الروم باموال جزيلة ثم اعادهم الى بلادهم بعد اقامة اربع سنين . واستقرت له بعد ذلك ولاية فارس ولكن الله قد انتقم منه على قتله ابيه بتسليط ابيه شيرويه عليه فخلعه عن الاحكام وقتل جميع اخوته بمحضور ابيه ثم امر به فالتقى في جب عميق وعذبه بانواع العذابات الى ان مات وفي سنة ٣٠ مسيحية نولى بزدجرد ملكا وهو آخر ملوك الفرس وفي ايامه افتتحت العرب بلاد العجم وقتل بزدجرد في الحرب واستولى المسلمون على البلاد العجمية مدة طويلة كما سيأتي تفصيل ذلك في الكلام على دول العرب

الباب السادس

في الكلام على شاهات العجم

وفي سنة ١٢٥٨ م دخلت التتر الى بلاد العجم وطردت دولة العرب منها وتولت مكانها عدة قرون . ثم في سنة ١٥٠٠ قام عليها ملوك من اهل فارس وتلقبوا بالشاهات اي السلاطين وكان اول هولاء الملوك الشاه اسماعيل الاول وهو من نسل العرب فتغلب على البلاد واستولى عليها ٢٢ سنة . ومن اعظم هولاء الملوك الشاه عباس نبأ سربر الملكة ١٥٨٩ فحارب الاتراك وظفر بهم مراراً عديدة ومنع البرنوكلين من الاستيلاء على جزيرة اورموز في خليج العجم ومن افضل ملوك هذه العائلة الشاه حسين الذي هو آخرهم وكان مع ادارته وحسن تصرفه قليل الحظ من رعاياه جلس على سربر الملك سنة ١٦٩٤ الا انه لم يطل زمانه حتى اضطر الى ان يتنازل عن كرسي الاحكام لخصمه له يدعى محموداً ولكنه قبل ان يخلع نفسه عن تخت الملكة نزل الى الاسواق حافياً واخذ يطوف في شوارع اصبهان التي كانت يومئذ عاصمة البلاد وهو بصح قائل لا تحزنوا ايها الناس على فراقي عنكم لان الشاه محموداً هو اخبر مني وادري في تدبير امورك واصلاح شانكم لاسيما في ادارة الحروب وسياسة الاحكام . وكان اكثر سكان المدينة يمشون وراءه وهم ييكون ويتبعون على فراقه . ثم في سنة ١٧٣٥ قام كولي خان وتناوب كرسي الملكة وسمى نفسه نادرشاه وكان جباراً عنيداً ظالماً غشوماً كثير الحروب والغارات وكان قد غزا الجهات الشمالية من بلاد الهند سنة ١٧٣٩ فتغلب عليها ونهبها وعاد منها بغنائم وافرة واموال متكاثرة وكان مبعوضاً من اكثر رعاياه لكثرة ظلمه وجوره فوثب

عليه يوماً جماعة من قومه وقتلوه وكانت مدة حكمه سبع عشرة سنة . وانفق في
ايام كرم وكيل شاه انه حدث هياج واضطراب في المملكة واستمرت الحروب
بين الاهالي نحو ١٥ سنة وذلك من سنة ١٧٧٦ الى سنة ١٧٩٤

ثم تولى زمام المملكة بعده اغا محمد خان ثم فتح الله شاه ثم محمد شاه ثم ابنه
نصر الدين شاه وهو الملك الحالي صعد على سرير السلطنة سنة ١٨٤٨ مسجبة
وهو من افاضل ملوك العجم بوصف بحسن السياسة والتدبير والحب لرعاياه
وقد انشأ عدة مدارس كلية لدرس العلوم والفنون واكتساب المعارف والاداب
لنجاح الاهالي وفي سنة ١٨٦٣ اذن بادخال المسلك البرقي اي التلغراف الى
اقطار بلاده

اما عاصمة دولة ايران الحالية فتدعى طهران وهي كرسي المملكة والملك
قصر عظيم في مدينة اصفهان يقال له قصر الاربعين عموداً وكل عمود منها
قائم على اربعة سباع من نفيس المرمر وفيه من النقش البديع وانواع التحف
والصور المزخرفة ما يدهش النظر وبذهل العقل

وهذه البلاد مجدها شمالاً بحر الخزر والممالك الروسية وبلاد القتر المستقلة
وشرقاً افغانستان وبلوخستان وجنوباً خليج العجم وخليج اومان وغرباً تركيا في
اسيا وعدد اهليها نحو ١٤ مليوناً

وقد فاق اهل هذه المملكة على ما سواهم من الناس في نسيج الحرير
والصوف كالخمل وشالات الكشمير والبسط والطنافس وفيها ابنة فاخرة
وقصور عظيمة شاهقة ولكنها لا تقاس بتلك الابنية الهائلة التي كانت في ايام
الملك زركسيس . وليس لاهل العجم في هذه الايام ميل الى الحروب وسفك
الدماء كما جرت لهم العادة في الايام السابقة وذلك لانعكاسهم على المطالعات
وانشغالهم بسرد القصص والايثار المفيدة المكتوبة من عصور قديمة وهي في غاية
الظرف والحسن ولهم ايضاً ولوع وذوق في نظم الشعر والنثر وقد اشتهر منهم
في هذه البلاد جملة من الشعراء كالحافظ الشيرازي والسعدي والفردوسي وغيرهم

الفصل السادس

في مملكة الصين

الباب الاول

في وصف بلاد الصين ومدنها واهلها وعوائدها

هذه المملكة مجدها شمالاً بلاد سيبيريا ابي روسيا في اسيا وشرقاً
الاقيانوس الباسيفيكي وجنوباً بحر الصين والهند وغرباً افغانستان وبلاد التتر
المستقلة . وهي بلاد واسعة جداً ذات املاك وافرة تتبعها بلاد كثيرة من بلاد
المغول والمانشو وغيرها وعدد اهلها ٤٤٦ مليوناً منها ٤٢٠ في نفس سلطنة
الصين و٢٦ في البلاد المجاورة مثل منشورية وبلاد المغول وثبتت وغيرها
التابعة السلطنة الصينية . وللصينيين شهرة عظيمة في بعض الصنائع كسج
الحبر والقطن والكتان ولا سيما خمر العاج وعمل الخزف المعروف بالصيني
وغير ذلك من الانواع

اما مدن بلاد الصين فمهما نأمكن وكانت سابقاً عاصمة البلاد واما في
هذه الايام فقد انحطت عن عظمتها القديمة لانتقال تخت الملك منها وعدد
اهلها الآن نحو خمس مئة الف نسمة ومن غريب ابنتها البرج العظيم الذي
انشأه بعض الملوك في مدة ١٩ سنة واثنته غابة الاتقان وهو مبني من الاجر
ومحيط اسفله مئة وعشرون قدماً يعلوه تسع طبقات شاهقة وله من داخله

درج على شكل لولب يصعد فيه الى السطوح وخارج البرج ملبس بالخزف الصيني الملون . ثم مدينة باكين وهي قاعدة المملكة ودار اقامة السلاطين وعدد سكانها نحو مليونين وهي على شكل مربع مستطيل يحيطها سور ارتفاعه نحو مئة قدم وعرضه ثلثون قدماً بحيث تدور فوقه الحراس وهم راكبون خيولهم وفي جوانب هذا السور اثنا عشر باباً تعلوها ابراج لاقامة الحراس والمحافظين . وتنقسم هذه المدينة الى قسمين جنوبي وشمالى اما القسم الجنوبي ففيه اكثر مساكن العامة واما الشمالي ففيه بلاط الملك وبساتينها وجنائنها التي هي في غابة البهجة وفي هذا القسم ايضاً كثير من الجبرات الصناعية والازهار البهية والاشجار المختلفة . ومن مدنها ايضاً مدينة سنغغو وهي بعد باكين في الانساع والحسن . وفي سنة ١٦٨٥ من الميلاد عثر بعض الاهالي بالقرب منها على لوح من المرمر نحتت الارض مكتوب عليه بالخط الصيني كلمات سريانية فوقها صورة صليب فاجتهد العلماء في البحث عن معرفة هذه الكلمات فوجدوها مشتملة على اثنتين وستين علامة منقوشة بالحروف الصينية فتأملوها فاذا هي عبارة عن رسالة تتضمن اصول دين النصرانية وعدة مسائل تتعلق بقوانين القسوس واسماء الملوك الذين كانوا سبياً في نشر هذه الديانة التي اظهرها في تلك الجهة دعاة من قسوس النساطرة سنة ٦٣ للمسيح وكانوا قد قصدوا هذه المملكة من بلاد العجم والشام وكان لهؤلاء الدعاة في بلاد الصين عدة كنائس . ثم مدينة كتون وهي بالقرب من البحر يسكنها قناصل الدول الاجنبية وعدد اهلها نحو مليون نفس

واهل الصين بوجه الاجمال سود الشعر صفر اللون صفار العيون واكثرهم يلبسون اقصة طويلة اشبه شيئاً بالاتب ويتمنطون باحزمة حريرية وينقلون ساكنين وخناجر في احزمتهم وهم على جانب عظيم من الغش والخداع ولمن من العوائد والاصطلاحات الذميمة النتيجة ما تأنف منها السماع . منها انه اذا كان لاحد الوالدين عدة اولاد لا يقدر ان يقوم بمعاشهم يجوز له ان يلقهم

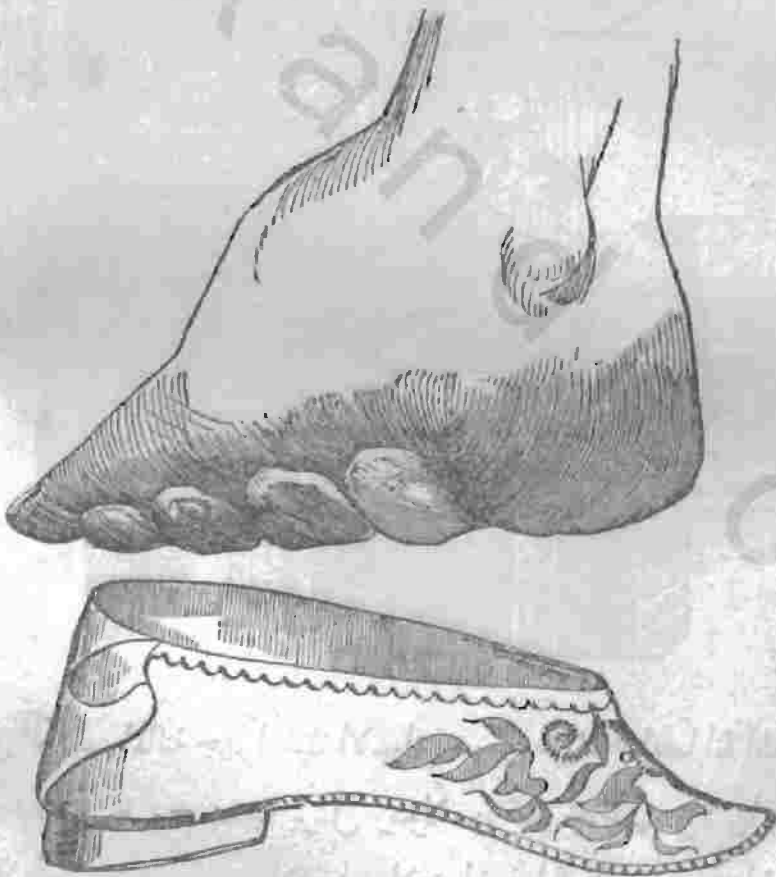
في النهر ليتخاص منهم ولا يعترضه احد . ومنها انهم يأكلون لحوم الفار والجردان



مبيع الفار والجردان

ويبيعون الكلاب المائثة جهراً في الاسواق . ومن عوائدهم ايضاً انه اذا اراد الرجل منهم ان يتزوج بصية يرسل رسولاً من قبله ليخاطب والديها بذلك فاذا قبلوا يخلصون عن ساعة ولادتها وولادته ليعرفوا في اي يوم وفي اية ساعة كانت ولادتها لمعرفة طالعتها فاذا وجدوا ان كل شيء موافق يرسل اليها

المخطيب بعض جواهر نفيسة على سبيل الخطبة حتى اذا كان يوم العرس
ينصبون خيمة قدام دار العروس ويذرون ارضها بالقمح ويدعون الاصحاب
والمعارف ويجلس اهلها بجانبها بحسب رتبهم ويقامهم ثم ينقض اهل العروس
جميعاً ويذهبون بهم مع العروس الى بيت العريس ويرشونهم في اثناء الطريق
بالقمح والشعير وعند وصولهم يجلسون العروس بجانب العريس فينوم ذوى
العريس ويقدمون لهم الشاي والعرق والحلويات وعند انصرافهم يقدمون
الهدايا للعريس والعروس على سبيل التهنئة. ومن عوائدهم انهم يجلفون شعور
رؤوسهم ويقفون منه خصلة في اعلاها فيجدلونها ويرخونها على ظهورهم. ومنها
انهم يستظرفون صغراجل النساء ولذلك يعلون قوالب من حديد ويضعون



فيها ارجل البنات في صغرهن حتى اذا كبرن تكون ارجلهن صغيرة

وفي هذه المملكة كثير من الجبال الشاهقة والانهر الكبيرة المشهورة كثير
 تاكيان الذي يصب في البحر الاصفر وهو يعد من اعظم انهرها يبلغ طوله ثلثة
 الاف ميل وفيه تجري سفن كبيرة وصغيرة لخدمة النفل . وفيها كثير من
 الترع التي توصل المياه الى داخل البلاد لاجل سقي المزروعات وتبل
 المحاصيل من جهة الى اخرى . وفيها جملة معادن منها النحاس واللازورد
 بلونون به الصيني واليشب والبلور والمغنطيس والزبيق والفضة . وفيها الماس
 والزمرد والياقوت وغيرها من الحجارة الكريمة

ومن اشجارها الكافور وعود اللد الذي يضاف في الصورة والارتفاع
 شجر الزيتون ثم الشاي وهو من اشهر نباتها وافضلها ومن العجب انهم يظفون
 ثلاث مرات في كل سنة وكيفية ذلك انهم يظفون اولاً اغصانه ويضعونها
 بقرب نار خفيفة حتى تجف قليلاً ثم يلفون ورقه ويجعلونه في صناديق من
 رصاص وبرسلونه الى اوروبا وباقي الجهات . وقد بلغ مؤخراً معدل ما
 يرسل منه الى الخارج وما ينقطع داخل البلاد سنوياً ألفي مليون اقة تقريباً .
 ومن حاصلات الصين الثمينة الحرير فانهم يعتنون بتربية دودهم وهم اول من
 اكتشفوه ومن عندهم خرج الى باقي الاماكن . وللصينيين اختراعات كثيرة لم
 تعرف في البلاد الاfrنجية الا بعد ازمة طويلة من وقت اختراعها مثل عمل
 القرباس والخزف والمطابع والبارود وغير ذلك مما يوجب لهم الانجاز
 والمدح . ويراد السلطنة يبلغ من ٦٠ الى ٧٠ مليون ليرة انكليزية في السنة
 وأكثره يوزع عيناً من حاصلات البلاد

اما لغاتهم فهي من اقدم اللغات ولما تغيرت عن حالتها الاصلية كما
 يحدث غالباً في اكثر اللغات . واما كتابتهم فليس لهم حروف معتدة يكتبون
 بها كما في سائر اللغات وانما لهم علامات واسماء اصطلاحية عليها واذا كتبوا
 ابتداءً بالمسطر من فوق ونزلوا به الى اسفل ناحية صدورهم خلافاً لباقي الكتابات
 واما ديانهم فهي الوثنية واعظمها البوذية . ومن اصطلاحات كهنتهم في

الاختلالات الدينية انهم يلبسون بدلات مختلفة ثم يوقدون الشموع ويعلقون



صنم صيني يستندون ويقبل شروهم في اعمال مهينة

في اعتناقهم الماسح ويحملون بايديهم الاجراس ويطوفون في المساجد والمآكل

والبعض منهم يمنعون عن الزواج ويسكنون في صوامع متفردة عن الناس
وعندهم كثير من القصص والتواريخ التي لا يوثق بها ولا يليق بشأن المؤرخ
ذكرها واعتمادها . ومن عوائدهم ايضاً انه مباح لهم ان يتخذوا لانفسهم ما شاءوا
من النساء بشرط ان لا يكون للرجل اكثر من زوجة شرعية واما البقية
فيعتبرون بمنزلة خادمات

الباب الثاني

في تاريخ مملكة الصين

ان هذه المملكة من اقدم ما لك الارض واعظمها وقد اختلف المحققون
وارباب التاريخ في من اسمها فزعم الاكثرون انه فوهي الذي يظنونهُ نوحاً .
وما يؤيد قدميتها كثرة ملوكها وقد عدَّ المؤرخون دولها الى هذا اليوم فكانت
اثنتين وعشرين دولة حكمت في مدة اربعة آلاف سنة . واما تاريخها فيتمد من
سنة ٢٢٠٠ ق م وهو بالحقيقة من اسفم تواريخ الدنيا واطلمها لا يعتد عليه نظراً
لما يتضمنهُ من الخرافات والحكايات الغريبة البعيدة عن التصديق حتى لو
سعى احد ان يستغرقه علمه التفصيلاً لاستلزم عدة مجلدات كبيرة مع انه
ليس بين اخبار ملوكها القدماء شيء يستحق الذكر الا الى زمن دولة تشاو
التي استولت على السلطنة من سنة ١١٠٠ ق م الى سنة ٢٤٩ ق م ومن ملوكها
الامبراطور تشاوس جلس على الكرسي قبل المسيح بخمسة الف سنة وكان مغرمًا
بالصيد والقنص وكان يصرف أكثر ايامه في الجولان بين الغياض والبساتين
حتى انه كان اذا طارد غزالاً او ارنباً يتبعهُ ولا يميل عنه حتى يصبده . وكان
كثيراً ما يدوس الاراضي المزروعة مع حواشيهِ وخدمهِ وقت الصيد وهو

غير مبالٍ بالاضرار الناتجة من ذلك حتى مفتة شعبه وازدروا به واضمر وزراء دولته التخلص من رياسته بقتله فحرضوا بعض الاتباع على ذلك . وكان في تلك النواحي نهر عظيم من عادة الملك ان يعبره في طلب الصيد فاعدوا له في بعض الايام قارباً مكسوراً من قعره ووضعوه له على الشاطئ فلما حضر الملك ورأه استحسنه ثم نزل به هو واتباعه ولما صاروا في نصف النهر انفكت الواح القارب فسقط في الماء وغرق الملك ومن معه

وفي زمن تلك هذه الدولة ظهر كونفوشيوس العالم الشهير الذي كتب جملة تأليف في الدين والاداب والسياسة لم تزل موجودة الى هذا اليوم ويعتبرها الصينيون اعتباراً عظيماً كاساس ديانهم وآدابهم . ولولاها لما علم عند المتأخرين شيء من تاريخ الصين القديم . وكانت ولادة هذا الشخص سنة ٥٥٠ ق م تقريباً من عائلة معتبرة فانصب على العلوم من صغره ولما بلغ سن الاربع والعشرين سنة انعكف على اصلاح عوائد بلاده فاخذ يحول بين ولايات السلطنة وينذر الناس بتعاليمه فالتصق به كثيرون وذاع صيته بين الجميع حتى دعاه ملك لو وسلطه وزارة مملكته فاصبح شرائعها واصطلاحاتها وانما فيها اسلوب التجارة والزراعة ولكن بما ان الملك كان مغرمًا بالملاهي واللذات فترأخى من كونفوشيوس ولم يثبت في اتباع مشوراته الحكيمة فاضطر هذا الفيلسوف ان يترك دار الملك ويرجع الى اعتزاله ومواظبته على الانذار والتعليم والتأليف . ومع كل احترام الناس له كان لين الجانب وديعاً ومتواضعاً الى الدرجة القصوى غير محب المال . وكان كونفوشيوس قريباً من عصر هيرودوتوس ومحسبها العلماء ابوي التاريخ ولكن الاكثرين يفضلون الاول على الثاني لانه ما عدا كتاباته التاريخية ترك لبلاده تعاليم اديبة اتمت بفوائد كثيرة من وقت مائه الى الآن

ومن ملوك دولة تشين التي خلفت الدولة السالف ذكرها من سنة ٢٤٩ الى سنة ٢٠٥ ق م الملك سيهوانكي وعند جلوسه على تخت المملكة شرع في بناء

سور عظيم حول البلاد ليفيها من هجوم التتر ولم يزل السور الى الآن يبلغ ارتفاعه ٢٠ ذراعاً وعرضه تسع اذرع وهو يشغل مسافة الف واربعماية ميل وعند فراغه من هذا السور ازداد تعجباً بنفسه واقتخر على من تقدمه من الملوك والسلطين فاخذ يعامل الناس بالقساوة والجبروت . واذ كان يريد اطفاء خبر الاولين ومن سلفه من الملوك وبُظهر للمتأخرين انه اول سلاطين الصين لم يرَ سيلاً الى ذلك الا اعدام المورخين واتلاف قيود الملكة فامر احد الايام بدفن اربع مئة رجل من العلماء وهم في قيد الحياة ثم امر بحرق سائر الكتب والتواريخ التي في مكاتب الملكة . وبعد موت هذا الملك تولى ابنه مكانه وبموته انقرضت دولتهم

ثم قامت دولة اخرى تعرف بدولة هان وذلك من سنة ٢٠١ ق م الى سنة ٢٢٤ للميلاد وفي كل مدة تملكهم لم يحصل للبلاد راحة من غزوات التتر المتكررة . ومن ملوك هذه الدولة الامبراطور قاني وقال البعض انه كوانك كان على غاية من الخفة والطيش يميل الى الملاهي والطرب متعمكاً على اللذات والسكر ولذلك كان بكره الموت ويود الحياة فاخذ يهيم ويتش عما يدفع عنه كاس الموت ولكنه بعد ان صرف زمناً طويلاً في الامتحانات الحالية كتركيب المعاجين المقوية واستخراج المشروبات المنعشة ادركته المنية فخاب سعيه واخطاه الامل قبل اتمام العمل

ثم خلفه ملك آخر كان مغرمًا بطلاعة التواريخ والاخبار ولذلك اهمل مصالح الملكة وانعكف مواظباً على الدرس والقراءة وكان وزيره يبغضه وبغضى هلاكه فاغتم الفرصة وهج عليه الشعب ليفتكوا به فلما سمع الملك اصوات العصاة وهياجهم بادى في الحال ونقلد سلاحه وخرج من المكتبة لينقف على حنيفة الخبر فوجد اكثر الشعب قائمين عليه يريدون هلاكه فعلم ان سبب ذلك اشتغاله عن معاطاة الاحكام بالمطالعات الكثيرة ولما رأى نفسه عرضة للهلاك وانه لم يبق امكان للدافعة ارتد الى مكتبته واضرم بها النار فاخرقت وكان عددها

نحو مئة واربعين الف مجلد ثم هم عليه الشعب فقتلوه
وفي سنة ٦١٧ للمسيح جلس ملك آخريدي سيكويين وكان قد بنى لنفسه
قصرًا عظيمًا من البهج القصور المزخرفة واثنته اثنا عشر خارجًا عن حد العادة وحلى
حيطانه بباء الذهب وفرشه بانواع الفرش النفيسة والامتنعة الفاخرة الزاهية فلما
مات دخل ابنه الى هذا القصر فدهش من فرط حسنه وجماله وقال في نفسه
ان هذا القصر مما يفسد عقول الملوك ويزيدهم تكبرًا وفخفخة فامر باحراقه
وجلس سنة ١٠٠٠ مسيحية على كرسي الملكة ملك شهيد بالمعارف والاداب
يدعى شوانكتسون وكان على جانب عظيم من الزهد والوداعة وكمال الاستقامة
وكان ذا حكمة وفراصة مطبوعًا على مكارم الاخلاق حريصًا ساهرًا على جلب
الراحة للبلاد والعباد فاحبه رعاياه ومالوا اليه لتصرفاته وحسن سلوكه
ومن جملة مزاياه الغريبة انه كان ينام على بساط الارض بلا مثال ولا دنار
ويربط في عنقه جرسًا حتى اذا تحول من جهة الى جهة وهو مستغرق في نومه
يسنقظ برنين الجرس معتبرًا ذلك الوقت وقتًا مناسبًا لتباهيه من النوم
وسنة ١٢١٠ للمسيح زحف جنكيز خان ملك التتر والمغول بمجيئ
عظيم على هذه المملكة وافتتحها بعد وقائع متعددة وهجمات هائلة واستولى على
جانب عظيم منها وقام بعده ابن ابنه قوبلاي خان فاكل امتناح البلاد واسس
مدينة باكين وسمى نفسه خان الصين الكبير واستمرت البلاد في ايدي ذريته
الى سنة ١٢٦٨ حيث استخلصها منهم العائلة المعروفة بدولة مينك . وكانت
احكام التتر في كل مدة استيلائهم على الصين قاسية جدًا ومعاملة المغول بربرية
لم نعلمها الا هالي الا بكرب شديد وقيل انه في مدينة واحدة نهض مرة ٤٠
الف نفس من اهلها وامانوا انفسهم بايديهم بغية التخلص من جور ظالمهم .
وفي مدة تسلط هذه الدولة دخل البورتوغاليون اولًا الى الصين وذلك سنة
١٥١٦ وفتحوا الباب لدخول باقي الدول الافريقية ثم تبعهم الفلمنيون سنة
١٦٢٤ ثم الانكليز في ذلك القرن عينه ثم المسكوب ثم الفرنسيون والاميركانيون

ولكنهم لم ياخذوا مركزاً ثابتاً في تلك البلاد نظراً لبعض الاهالي مخالطة
 الاجانب . ومن سلاطين هذه الدولة الامبراطور شنكتا جلس على سرير
 الملك سنة ١٥٢٢ وفي ايامه ظهر معدن من الحجارة الكريمة في تلك البلاد
 فقصده الناس من جميع النواحي واخذوا يشتغلون بحفره وتقطيعه وكان احد
 الناس قد جاء الى الملك ذات يوم ببعض فصوص ثمينة من ذلك المعدن فلما
 شاهدها التفت الى من حوله من الناس واراها اياها ثم صاح عليهم باعلى صوته
 قائلاً لهم انظرون اياها الناس ان هذه الحجارة كريمة قالوا نعم انها كريمة ونفيسة
 قال اذا كان الامر كما ترعمون فلا بد ان يكون لها نتائج مفيدة فاخبروني اذا
 ما هي فوائدها استطيع ان تشبع جائعاً او تكسو عرياناً ثم امر بتعطيل ذلك
 المعدن وردمه وان يشغل اولئك الناس في عمل آخر اهم وانفع . فدام تسلط
 هذه الدولة الى سنة ١٦٤٥ حين طردها قبيلة من التتر المانشو المعروفة بدولة
 تانسبك وهي الباقية الى ايامنا هذه . ومن ملوكها الامبراطور كنكي من اعظم
 ولاية الصين سطوة وشوكة وفي ايامه دخلت الديانة النصرانية الى البلاد
 بواسطة مرسلين يسوعيين واذ كان يميل اليها اصدر امراً ملكياً سنة ١٦٩٢ بمنع
 به معلمها جملة امتيازات . وقد قرب اليه احد هولاء الالباء وجعله مستشاراً له
 فكان نفوذه عظيماً في البلاد . واجتهد اليسوعيون في تهذيب الناس وتعليمهم
 ونجحوا نجاحاً عظيماً في وقت وجيز والعالم مديون لهم لاجل معرفة احوال
 الصين الداخلية اذ كانت قبل ذلك مجهولة وبعد توفي كنكي سنة ١٧٢٢
 خلفه ابنه يون شينك وكان اذاك صغير السن فتسلم زمام السلطنة اربعة وكلاء
 وفي مدة وكالتهم سنوا سنة هي ان يمنع الحصيان المتولجين حراسة الحرم من
 الارتقاء والتوصل الى وظيفة من وظائف البلاد وكانوا قبل ذلك الوقت
 يرتقون الى اعلى المناصب ونفشوا تلك السنة على الواح من حديد وزن كل منها
 نحو اربع مئة افة والى الان يتمسك بها كل ولاية الصين اذ بواسطتها حصل من
 ذاك الوقت السلام والراحة في كل السلطنة . ولما بلغ يون شينك المذكور

سن البلوغ واستلم زمام الاحكام لم يعامل اليسوعيين كمااملة ابيه ولاسباب غير
معاومة مفتهم وابعدهم عنه ثم نفاهم من العاصمة اولاً الى كيتون ثم الى مكاو ففقدت
كل نتائج انعامهم . وفي ايامو حدث زلزلة عظيمة في بلاد الصين لم يسمع بمثلا
منذ خليفة العالم فهدمت اكثر بيوت باكين ومات بها نحو مئة الف نسمة
وشل الخراب والموت باقي الحدود المجاورة

ثم خلف يون شينك الامبراطور كيان لونك وكان سلطاناً عظيماً
وجاذقاً حكيماً يود الاجانب ويميل اليهم اكثر من سلفائه وبعد موته جلس
ابنه مكانه واذ كان غير اهل للاحكام خلع نفسه عن كرسي السلطنة واقام
ابنه تاوكوانك مكانه سنة ١٨٢٠ وكانت البلاد في ايامو بلاراحة من جرى
الثورات الداخلية والاضطرابات الخارجية ولاسيما حرب الانكليز سنة ١٨٤٠
المعروفة بحرب اففيون . وكان السبب في ذلك ان الحكم الصيني منع ادخال
هذا الصنف الى بلاده واصدر امراً جازماً سنة ١٨٢٢ بمنع الاتجار به اما
الافرنج فلم يكونوا يعتبرون هذا التنبيه بل استمروا بتعاطون هذه التجارة خفية
ولما اشهر امرهم عند الحكومة ارسلت في الحال معتمدين من باكين الى مدينة
كيتون ووكلت اليهم استعمال ما يلزم لتبطل تلك التجارة فالفوا القبض حالاً
على رجلين من ابناء البلاد ممن وقعت عليهم الشبهة في تهريب اففيون وقتلوهما
بمخضور الافرنج ثم احاطوا بالمنازل الافرنجية وهجموا عليها دفعة واحدة واخذوا
منها ٢٠ الف صندوق من الصنف المذكور . فهذه الوسائط جعلت تجارة
الاففيون تنحصر في الفرض البحرية حيث ترسي المراكب الحربية ولكن اذ كانت
حكومة الصين متشبثة بانام مقاصدها لم تغفل عن مراقبة اعمال تجار الافرنج
واستمرت على مقاومهم لمنع جلب اففيون الى الاقطار الصينية فوقع بينها وبين
الافرنج لذلك معركتان في نهر كيتون اشهرها بين بارجين انكليزيتين وبين
٢٩ مركباً صينياً تحت رئاسة الاميرال كوان فكانت الدائرة على الصينيين
فانسحبوا بعد ما حرق مركب من بوارجهم وغرق منها عدة سفن فعظم ذلك

الامر على ملكة الصين واصدرت امراً بابطال كل معاملة تجارية مع انكلترا وسعت في احراق البوارج الانكليزية وهي راسية في مينائها فالتزم حينئذ رئيسها ان يتجنى الى قوة الاسلحة واشهر الحرب على الصينيين واحاط بمدينة كتنون بالمراكب والعساكر وضائقتها فاضطر الامبراطور عند ذلك ان يصرف ذلك المشكل بتأدية ٦ ملايين من الريالات كتضمين على ما تكبدوه من الخسائر في اثناء الحرب وتنازل لم عن جزيرة هون كونك وتعهد بارجاع المعاملات التجارية بين الامتين كما كانت سابقاً . ولكن اذ لم يف الامبراطور بهذه العهود عاجلاً اضطرت انكلترا ان تلزمه جبراً على اجرائها فارسلت عليه البوارج ثانية تحت قيادة السار هنري يونيجر سنة ١٨٤١ فضرب موانئها واستولى على اكثرها فخاف الامبراطور من عواقب الامر وعقد صلحاً مع دولة انكلترا في السنة التالية تحت شروط معلومة وهي ان الدولتين تكونان في صلح وسلام مدى الدوام وان سلطنة الصين تؤدي للانكليز ٢١ مليون ريال في مدة اربع سنوات وان مواني كتون وآموي وفوشو وينكيو وشنفاي تكون مفتوحة للتجارة الانكليزية ويصب فيها قنصل . وان جزيرة هون كونك تعطى عطاءً مؤبداً الى جلالة الملكة فيكتوريا وخليفتها من بعدها وان المكاتبات بين الدولتين تكون على نسق المساواة سنة ١٨٥٠ توفي تاو كوانك المذكور وجلس مكانه ابنه هيان فونك فتواني عن القيام بحق العهود المذكورة وحاول من جهة حق دخول الانكليز الى داخل مدينة كتون فادى ذلك الى مناظرات عديدة بين الطرفين استمرت الى سنة ١٨٥٧ حينما وقعت حادثة السفينة الانكليزية المسماة ارواذا هاجمها بعض ضباط الصين ومزقوا رايبتها وقبضوا على جانب من رجالها ظلماً وعدواناً ورفض الامبراطور بعد ذلك اعطاء الترضية للانكليز عن هذا الفعل الذميم فالتزمت انكلترا ان تنشر حرياً على الصين مرة ثانية واذ كانت صوامع فرانس التجارية وقتئذ ومحاماتها عن الاكليروس الكاثوليكي في تلك البلاد تستدعيان المداخلة اتحدت هاتان الدولتان وارسلتا قوة بحرية وبرية

تحت رئاسة البارون كرو من قبل فرانسوا واللورد الجين من قبل انكلترا وذلك سنة ١٨٥٨ وبعد دخولهم الى تياتسين قهراً وهدمهم قلع مدينة تاكو التي على فم نهر ييهو عقدوا مع حكومة الصين معاهدة تشغل على ٥٦ بنداً منها ان يكون لسفراء فرانسوا وانكلترا حق السكن في مدينة باكين وان لا يكون مانع لجولان رعاياهم في كل اقطار السلطنة وتخصص تسع مدن غير المدائن التي كانت تخصصت بالمعاهدة الاولى لتكون موانئها مفتوحة لتجارتهم وان لا يصير ادنى تعرض للديانة المسيحية ولا لبناء الكنائس او البيوت وغير ذلك من الشروط . فلما ثبتت الحكومة الانكليزية تلك المعاهدة وكان اخو اللورد الجين ذاهباً بها الى باكين سنة ١٨٥٩ استبدلها بالنسخة الصينية وجد ان الحكومة حصنت قلاع مدينة تاكو واقامت ايضاً حواجز لمنع مرور المراكب من فم النهر . وبينما كانت المراكب الانكليزية تريد ان تغتصب الدخول الى النهر اطلق الصينيون عليها النار من القلاع وضروا بها ضرراً جسيماً فعند ذلك واقام اللورد الجين والبارون كرو مرة ثانية سنة ١٨٦٠ بمراكب كثيرة واغضبوا الدخول في النهر المذكور بعد ما هدموا الحصون الحامية ودخلوا متصرفين الى مدينة باكين وحرقوا قصر الملك الصيني وعقدوا شروط الصلح وحصل اللورد الجين على تثبيت المعاهدة المار ذكرها . اما الامبراطور هيان فونك فانه هرب الى مانشوريا وهناك توفي بعد سنة وهو في سن الثلاثين ثم خلفه هيان فونك الامبراطور الحالي تشي سيانك ومعناه المسعد جلس في ٢٢ آب سنة ١٨٦٢ وهو في سن الثلاث عشرة وفي ابامه تمكنت الحجة والالفة بينه وبين الدول افرنجية وجعلوا بينهم روابط ومعاهدات باقامة السفراء والتراب بين الطرفين ولذلك ترى الآن سفراء الممالك الاوروبية ووكلاءها منششرين في اكثر المدن الصينية ولا سيما في المواني البحرية ولا بد ان الصينيين برون قريباً فوائد هذا التغير لانفسهم ويحشون بهذه الوساطة اثار الارباح المادية والادبية الناتجة عن هذا الاختلاط

الفصل السابع

في تاريخ العرب

الباب الاول

في جغرافية بلاد العرب

هذه البلاد يحدها شمالاً فلسطين وسورية وشرقاً العراق والجزيرة وخليج
العمى . وجنوباً بحر الهند . وغرباً بوغاز باب المندب والبحر الاحمر وبوغاز
السويس . واهلها اثنا عشر مليوناً . وهي خمسة اقسام اليمن والحجاز ونهامة ونجد
واليهامة

اما بلاد اليمن فتقسم الى خمسة اقسام وهي حضرموت وشعر ومهرة وعمان
ونجران . ومن اشهر مدنها مدينة صنعاء وهي قصبة البلاد ودار الامامة وكانت
كرسي ملوك اليمن في الازمنة السالفة وهي ذات بساتين واشجار كثيرة وبها
اثار لذينة خصوصاً العنب وبقرص صنعاء معادن فحم الحجور . ومن مدن
اليمن مدينة عدن ونجران وزيد ومدينة مخا وهي فرضة مشهورة على شاطئ البحر
الاحمر ومحط تجارة اليمن وعدد اهلها ١٨٠٠٠ ومنها يجلب اليمن الذي تنسب
العامية الى مكة ويقولون له الحجازي ثم مدينة مارب وغير ذلك من المدن
واما الحجاز فهو ما يلي البحر الاحمر من نهامة وسي حجازاً لانه حاجر بين
نجد ونهامة . ومن مدنها مكة وجدة والمدينة وفيه الطائف الواقع في شرقي مكة
وهو ابرد اقليم واجود مكان في الحجاز كثير الفواكه والبساتين وفيه عيون

وجنات كثيرة . وفي جبال الحجاز عدة ولايات صغيرة لا يعيش سكانها في الخيام كباقي عرب السهول بل لهم مدن وقرى مبنية بالحجارة وهم يدافعون عن انفسهم بمحسون وقلاع صغيرة ومن هذه الولايات ولاية خيبر وهي على الشمال الشرقي من المدينة واهلها يهود مستفلون بانفسهم

واما تهامة فموقعها على شط البحر الاحمر بين اليمن جنوباً والحجاز شمالاً واما نجد فهي ما يتصل بالشام شمالاً والعراق شرقاً والحجاز غرباً واليهامة جنوباً وهي ارض واسعة عظيمة كثيرة الجبال والمدن والقرى مشحونة بالاراضي الالتزامية حتى ان اكثر مدنها قد تكون التزام شيخ يحكمها ويتصرف باهلها كما يشاء وارضها مخصصة الى الغاية يخرج منها سائر الفواكه خصوصاً التمر وبها تربي الخيول العظيمة ومن مدنها رياض وهي قصبة البلاد ذات سور وجنائن ويندر يجتمع اليها التجار من سائر الجهات للبيع والشراء وسكانها على اشد ما يكون من التعصب في المذهب الوهابي . ثم مدينة ايانا وهي التي نشأ بها محمد بن عبد الوهاب الذي انشأ هذا المذهب

واما البامة فهي بين نجد واليمن وهي متصل بالبحرين شرقاً والحجاز غرباً وتسمى العروض لاعتمادها اليمن ونجد

اما ثلاث بلاد العرب فمنها الحنطة والذرة والشعير والقوة والبن والفلل والقطن والسنا مكي والباسم والعود والمر والبخور والبن والتمر وهذا الاخير هو اساس قوت اهل هذه البلاد . وفيها من الحيوانات الاسد والضبع والنمر والذئب والوعل والجواميس والغزلان والحمير والقردة والجمال والهنج والخيول وهي اجود خيول الارض موصوفة في الحسن والحنه . والمعادن في هذه البلاد قليلة جداً وفي بعض الاماكن معادن حديد ونحاس ورصاص . والعقيق واللؤلؤ في خليج فارس . واما الفنون فمجهولة في بلاد العرب والصنائع مهلهة وفن الموسيقى يكاد لا يعرف فلا يسمع هناك سوى اصوات الطبول والمزامير

الباب الثاني

في اصل العرب وصفاتهم وما يتعلق بهم

ان العرب هم اقدم الامم من بعد الطوفان واشدهم بأساً واعزهم نفساً وهم
فرقتان بدو وحضر اما البدو فهم سكان البراري والقفار الذين يعيشون من
اللبان الابل والغنم ولحومها ويتقلون من مكان الى مكان في طلب العشب والمياه
واما اهل الحضر فهم سكان المدن والقرى . وكان لبعضهم عصور ودول
وقبائل ولم يكن دأبهم الا شن الغارة والغزو على الممالك حتى انهم غاروا على
فراعنة مصر قبل المسيح بنحو اثني عشر سنة واتصروا عليهم وقتلوا مصر الوسطى
والسفلى وتولى منهم جملة ملوك في مدة ثلث مئة سنة وكانوا يدعون ايام دولتهم
في مصر بالملوك الرعاة وهذا اقوى دليل وبرهان على قدميتهم وشدة باسهم في
ذلك الزمان وقد استولت ملوكهم ايضاً على الشام والعراق واليمن ونجد
والحجاز والبحرين واليامنة كما سيأتي بيان ذلك في محله . وجميعهم ينقسمون الى
اربع طبقات متعاقبة

الطبقة الاولى العرب العاربة ويقال لها البائدة اي المهلكة وكانوا شعوباً
وقبائل كثيرة العدد كعاد وطسم وجديس وغيرها فانقضوا جميعاً واندرسوا
ولم يبق من نسلهم احد على وجه الارض

ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة من ولد فحطان الذين منهم التباينة
ملوك اليمن ويقال ان فحطان المذكور هو اول من تكلم بالعربية من اهل
هذه الطبقة تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصراً لهم وكان ابنه يعرب
بن فحطان من اعظم ملوك عرب اليمن

ثم الطبقة الثالثة وهم العرب التابعة للعرب المستعربة من ولد عدنان الذي هو من ذرية اسمعيل بن ابراهيم الذي اختلط مع العرب المستعربة ونشأ بينهم وربي في احيائهم وتزوج منهم وتعلم لغتهم العربية بعد ان كان ابوه اعجمياً ومن هذه الطبقة المناذرة ملوك الحيرة والعراق

ثم الطبقة الرابعة وهم العرب المستعربة اليه عرب هذا العصر الذين فسدت لغتهم على تنادي الايام والسنين بمخالطتهم الاجانب واقتراض ما كان لهم من الدولة والسطوة في الجاهلية والاسلام وفي خلتهم الى الآن وهم طوائف عديدة وشعوب كثيرة يسكنون الخيام ويجولون في البراري الفقيرة واشهرهم عرب صخر وعذرة

ومن صفات العرب الشهامة والنجدة وحفظ العهود والزمام والافتخار بشدة الباس وعلو الهمة كاتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم ومن اطلع على اشعارهم استدل على احوالهم واخبارهم . ومن صفاتهم ايضاً المحافظة على شرف ناموسهم وعرضهم فكان عندهم الموت اسهل من العار والفضيحة ولقرط احترازهم ومحاماتهم عن شرف العرض توصل بعضهم على ما قيل الى عادة ذميمة ومكروهة جداً كدفن البنات بالحياة التي هي من اقبح العوائد وافظعها فبينهم من كان يفعل ذلك نجيباً للعار ومنهم من القلة والفقير فكان الرجل منهم اذا ولدت له بنت واراد ان يقيها في قيد الحياة البهيمية من صوف او شعر وجعلها ترعى له الابل والغنم في البادية وان اراد قتلها تركها حتى اذا بلغت من العمر تسع سنين يقول لامها طيبها وزينها حتى اذهب بها الى زيارة اهلها فيذهب بها الى الصحراء حيث يكون قد خسر لها يداً وعند وصوله بها الى ذلك المكان يدفعها من خلفها ويلقيها في الير ثم يهيل عليها التراب ويذهب الى حال سبيله

ومن صفات العرب ايضاً النخاء والكرم والضيافة للقريب والغريب . وكان منادي عامر بن الطفيل العامري بنادي في سوق عكاظ هل من

جائع فطعمه او خائف فنؤمته او راحل فحملة . وكان ايضاً عبد الله بن جدعان يذبح في داره كل يوم جزوراً وينادي مناديه من اراد الشحم واللحم فعليه باين جدعان فلا عجب اذا ما يحكى عن حاتم الطائي وكعب بن مامة واولس بن حارثة ومعن بن زائدة من الاخبار والقصص في الكرم والجود

وما يحكى عن فراستهم وحنافتهم انهم كانوا يستدلون بانار الاقدام والخوافر استدلالاً عجيباً فيعرفون قديم الشاب من الشيخ والرجل من المرأة والغريب من الموطن وكان اذا هرب منهم هارب او دخل عليهم سارق اتبعوا آثار قدمه حتى ظفروا به

وكانوا على انواع مختلفة في المذاهب والاديان وكان لهم آلهة واصنام كثيرة فعبد بنو حمير الشمس وبنو كنانة القمر وبنو لخم وجدام المشثري وبنو طي سهلاً وبنو اسد عطار وبنو ثقيف اللات والعزى

وكان للعرب قديماً شهرة عظيمة في الفصاحة والبراعة ونظم الشعر وهم تضرب الامثال الى يومنا هذا وكانوا يجتمعون في اوقات معلومة معينة يبيعون ويشتررون ويتفاخرون ويتناشدون الاشعار التي تدل على ايامهم ووقائعهم التاريخية وعلى ما كان عندهم من العوائد والاصطلاحات فيجتمع كل سنة بسوق عكاظ ساداتهم وملوكهم وقوادهم وقبائلهم ويجاسون في مكان معلوم ثم يقوم الشاعر من بينهم ويصعد الى محل مرتفع وارباب المجلس جالسون في مراتبهم فينشدهم نفائس اشعاره ومتى فرغ من انشاده قام غيرة من الشعراء وانشد ما عنده وهكذا الى النهاية . وكان للناطقة الديباني التقدم في هذا الاجتماع فكان ينصف بينهم ويفضل بعضهم على بعض . ومن اجود اشعارهم واشهرها المعلقات السبع التي اعدوا بها وكتبوها وزركتوها بحروف الذهب على المنسوجات الحريرية وعاثوها على الكعبة في مدينة مكة وقد اعنت علماء الاسلام بشرحها وذلك لما فيها من الفصاحة والبلاغة والصناعة الشعرية ومن تامل في قصيدة عنزة بن شداد العبسي التي يقول فيها

اذا بلغ الظلم لنا وليدٌ نخرّ له اعادينا سجوداً
فمن يقصد بداهية الينا يرى منا جبايرةً اسودا
وبوم البذل نعطي ما ملكنا ونملا الارض احساناً وجودا

عرف شجاعة العرب ونخوتهم وكرم اخلاقهم وعلو همتهم . ومن اطلع على قصيدة
السموأل التي منها

نعبّرنا انا قليلٌ عديداً فقلت لها ان الكرام قليلٌ
وما ضرنا انا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجار الاكبرين ذليلٌ
فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهامٌ ولا فينا بعد يخيلٌ
وننكر ان شئنا على الناس قوهم ولا ينكرون القول حين نقولٌ
وما خدث نارٌ لنا دون طارقٍ ولا ذمنا في النازلين نزيلٌ
واسياقنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلولٌ
معودةٌ ان لا نسلٌ نصالها فتفهد حتى يستباح قتيلٌ

استدل أيضاً على احوالهم اذ اكثر اشعارهم على هذا النسق

الباب الثالث

في ذكر العرب قبل الاسلام

وكانت مملكة العرب منقسمة الى دول متفرقة وملوك كثيرة العدد ومن
اعظم دولها في ذلك الزمان التابعة ملوك الين واول من ملك منهم فحطان
بن عابر بن صالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح وكان ملكه قبل المسيح بنحو اثني

سنة ثم ملك بعده ابنه يعرب وفي السنة الاولى من ملكه غزا بلاد الحجاز فتغلب عليها واسر عدة من ملوكها وضرب عليهم الخراج ثم فوّض ولاية البلاد الى اخيه جرم ورجع الى بلاده ظافراً منصوراً وكان يعرب مغرمًا بالبناء وهو اول من ابتدأ بعمارة المدن في اليمن وكانت مدة حكمه ٢٢ سنة ثم ملك بعده ابنه يشجب ثم ابنه عبد شمس الملقب بسبا وكان ملكاً ظافراً مقتدرًا كثير المغازي والحروب غزا غزوات كثيرة وافتتح مدناً حصينة وحمل السبايا الى بلاد اليمن وكانوا عدداً كثيراً ولذلك قيل له سبا وهو الذي اغار على بابل وفتحها وفيه يقول الشاعر

لند ملك الآفاق من حيث شرقها الى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعى بالجياد الاعوجية والقنا الى بابل في مقنب بعد مقنب

وكان ملكه خمساً وثلاثين سنة ثم ملك بعده عدة ملوك لا يعلم لهم اخبار ولا وقائع ولذلك ضربنا عنهم صفحا واكتفينا بذكر اشهرهم فمنهم الملك شمريرعش وهو في الحقيقة من اعظم ملوك هذه الدولة جلس على سرير الملكة سنة ٨٠٠ ق م كان جباراً مقتدرًا كثير الغارات والمغازي قصد بلاد الشرق في جيش مؤلف من نحو ثلث مئة الف مقاتل فدخل ارض العراق ثم ارتحل طالباً بلاد الصين وجعل طريقة على بلاد فارس فتغلب عليها وافتتح المدن والحصون ودخل مدينة السند فهدمها وخرّبها فقبل لها بالفارسية شمر كند اي شمر اخربها ثم أعيد بناؤها فبقي عليها ذلك الاسم لكنهم تصرفوا فيه فقالوا سمرقند وهي من المدن المشهورة في تلك البلاد وقد وُجد في بعض قصورها المنهدمة عمود مكتوب عليه بالحميرية هذا ما بناه شمريرعش لسيدة الشمس

ولما استخلص شمريرعش بلاد فارس سار طالباً بلاد الصين فخاف ملكها من خبر قدومه واربتك في امره وكان له وزير من اعقل الناس فقال له انا افدي هذه الملكة بنفسي واكفيك شر هذا الملك وجنوده

فقال قد فوضت هذا الامر اليك فافعل ما تريد فجدع الوزير انفة وسار طالباً الملك شمر برعش وكان بينه وبين المدينة مسافة ست مراحل ولما اشرف عليه تمثل بين يديه واعلمه بنفسه وشكا اليه ظلم الملك وقال قد فعل بي ما ترى على غير جنابة تستحق ذلك وخفت ان يقتلني فخرجت اليك هارباً وارجو ان يكون افتتاح هذه الملكة عن يدي فسر معي وانا ضمين لك بذلك . فاغتر شمر برعش بكلامه وبما رآه من جدع انفة وانقاد له فنهض بجيشه وسار معه الوزير فقادهم في تلك القفار على طريقة غير مستقيمة حتى دخل بهم في فلات معطشة مهلكة بعيدة عن الماء فاجهدهم العطش وهم يجردون في طلب الماء ولا يدركونه حتى هلكوا جميعاً وهلك شمر برعش والوزير ايضاً وكانت مدة ملك شمر برعش المذكور سبعاً وثلاثين سنة . وقام بالملك بعده ابنه ابو مالك وبموتة اتقل الملك من ذريته الى ولد اخيه كهلان وتولى منهم حملة ملوك ثم رجع الملك الى ذرية شمر برعش وكان آخر ملوكهم سيف بن ذي يزن الذي استخلص الملكة من ايدي الحبشة بمساعدة الملك كسرى انوشروان بعد ان كانوا قد استولوا عليها نحو سبعين سنة وكان ذلك بعد المسيح بخميس مئة وستين سنة

ومن ملوك العرب ايضاً الفساسنة ملوك الشام اصلهم من اليمن ثم انتقلوا الى نواحي الشام ونزلوا على ماء يقال له غسان فاشتهروا به حتى غلب اسمه عليهم فقليل لم آل غسان ثم تغلبوا على الشام وتلكوها فكان اول ملوكهم جفنة بن عمرو واخبرهم جبلة بن الابههم وهو الذي بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمه وكان قد اسلم في زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار الى مكة يريد الحج بمايتين وخمسين نفراً من اصحابه فلما قرب من المدينة قلدا اعناق خيله بقلائد الفضة والذهب ووضع ناجه على راسه ولما بلغ عمر بن الخطاب قدومه التفاه بركب عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فيبنا جبلة يطوف بالبيت اذ وطي رجل من بني فزارة طرف ازاره فاخل عنه الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمة هشم بها انفة

فتعلق به الرجل وانطلق الى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا اليه حالة . فقال عمر لجبله انت في خيرة اما ان يلطمك هذا الرجل كما لطمته او تنفدي اللطمة منه بالمال فقال جبله لعمر أ فلا بُفَضَّ عندكم ملكٌ على سوقة قال كلاً بل كلاهما في الحق سواء فغضب جبله من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بفلحانه وخرج بهم حتى لحق بالشام ثم سار من هناك الى قيصر واقام عنده فتشعبت اولاده في تلك البلاد وتسموا بالارناوط

ومن ملوك العرب ملوك بني كدة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر المشهور وهو صاحب المعلقة التي يقول في مطلعها

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوي بين الدخول فحومل
وهي من افصح كلام العرب وايضا يذكر فيها بعض قصص اخبار تتعلق بوقائع حاله الخصوصية وقد اشتهرت بين الناس بهذا المقدار حتى ضرب بها المثل دون غيرها فيقولون اشتهر من قفا نبك وذلك لما فيها من التشبيهات المتنوعة والمعاني البديعة المتعرجة . وكانت بنو أسد وهي قبيلة من كدة قد قتلت اباة في خبر مشهور فخرج الى قيصر ملك الروم يستعين به ويستجده على قتال القوم فلم يجده ومات في اثناء الطريق عند رجوعه من القسطنطينية بقرب جبل يقال له عسب وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وخمماية للمسيح

ومن ملوك العرب ايضا ملوك العراق الذين اولهم مالك بن فهم واخرهم المنذر بن النعمان بن المنذر بن ماء الماء الذي حاربه خالد بن الوليد واخذ منه مدينة الحيرة وكانت المناذرة يومئذ عمالا للاكاسرة على عرب العراق كما كانت ملوك غسان عمالا للقيصرة على عرب الشام . ومن اشهر ملوكهم جذيمة الابرش صعد على سرير الملكة بعد المسيح بثلاثين سنة وكان مسكنه الحيرة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر بقرب الكوفة وكانت منزلاً للملوك العراق في تلك الايام . وكان جذيمة المذكور ذا شوكة وبأس وهو اول من اوقد الشمع وانصب المجانيق للحرب وجي الاموال وكان بينه وبين عمرو بن الظرب ملك

الجزيرة عاقلة عظيمة فاستظهر عليه جذية بعد حروب طويلة وقتله ومالكت
بعده ابنة الرباء واسمها نائلة وكانت تسكن على شاطئ الفرات وقد بنت لها هناك
مدينة وقصراً عظيماً وكانت عاقلة اديبة فاجعت على اخذ الثار من جذية
بايها فارسلت اليه مع احد قوادها تخطبه لنفسها وتقول له انها امرأة لا يليق
بها الملك وانها تريد ان تضيف ملكها الى ملكه فطبع في ذلك واستشار
وزراءه في هذا الامر فوافقوه جميعهم الا وزيره قصير بن سعد فانه قال له
ايها الملك لا تفعل ولا تغتر بكلامها وما ارادت بذلك الا لتخدعك وتأخذ بثار
ايها منك فلم يلتفت جذية الى كلامه واستشار ابن اخيه عمرو بن عدي فوافقه
على ذلك فاستخلفه على المملكة وركب يومئذ في جماعة من خواصه وسار اليها
ومعه وزيره قصير المذكور فلما اشرف عليها قبضت عليه وقتلته وهرب قصير
حتى اتى عمراً ابن اخت جذية واخبره بما كان وحرصه على اخذ الثار

ثم ان قصيراً قطع انفه واذنيه ولحق بالملكة المذكورة ودخل عليها
واخبرها ان عمراً اتهمه بقتل خاله ففعل به ذلك ولم يزل يخدعها بالكلام
حتى اطمانت له ثم طلب منها ان تاذن له بالاقامة عندها فاذنت له وقدمته
على جميع غلمانها وصارت ترسله الى اليمن والحجاز بمال للتجارة فيأتي الى عمرو
فيأخذ منه ضعف المال الذي معه ويشترى به الخبز والديباج والزبرجد
والياقوت ويأتي به اليها الى ان تمكن منها وصار عندها بمنزلة عظيمة فسلمته
مناجيع الخزائن وقالت له خذ ما احببت منها فأخذ جانباً عظيماً من مالها واتى
عمراً وقال له قد علمت ما عليّ وبقي ما عليك قال وما هو قال الرجال
بالصناديق فانتخب عمرو من فرسانه الف رجل والبسم السلاح واتخذ معه
الف صندوق وجعل يسير بهم ولم يزل كذلك حتى اقترب من قصر نائلة
ومدبنتها فأمر جماعة فتأهبوا بسلاحهم ودخلوا الى الصناديق وقفلوها من
داخل ووضعت الخدام الصناديق على ظهور الجمال وربطوها بالجمال حتى
لا يشك كل من يراها انها قافلة ثم سبهم قصير الى المدينة وكان ذلك وقت

العصر ودخل عليها وحياها بالسلام وقال لها قد اتيتك ابنتي الملكة بفجأة عظيمة واموال جسيمة بما لم يات احد قط بمثله فصعدت الى سطوح القصر وجعلت تنظر الجمال وهي تدخل المدينة فانكرت مشيها وجعلت تقول

ما للجمال مشيها وثيدا أجنديلاً يحملن ام حديدا

ام صرفانا بارداً شديداً

فقال قصير في سره بل الرجال جُئنا قعودا

ثم امرت بالصناديق فأدخلت قصرها وقت المساء وقالت اذا كان الغد نظرنا الى ما اتينا به فلما تنصف الليل فتحت الرجال الصناديق وخرجت وفي ايديها السيوف فهجموا على القصر وقتلوا جميع من كان فيه من الغلمان والجواري وكان لثائلة سرداب في ناحية من قصرها قد اعدته لحوف يجل بها لتخرج من المدينة وكان قصير يعرفه ووصفه لعمره فصار اليه فلما احسست بالامر بادرت الى ذلك السرداب وكانت قد رأت عمراً وهو يطلبها فقصت سماً كان في خاتنها وماتت من وقتها وساعتها وغنم عمرو المدينة واطافها الى ملكته وانتقل بموت خاله جذيمة المذكور ملك العراق اليه والى ذريته من بعده

وللعرب حروب مشهورة اعظمها حرب البسوس التي هاجمت بين بني بكر وتغلب بسبب قتل كليب بن ربيعة سيد القبيلتين المذكورتين وكان من خبرها ان رجلاً من بني جرم يقال له سعد قصد ديار بني تغلب ونزل على البسوس خالة جساس ابن عم كليب وكان للجري ناقة اسمها سراب فوجدها كليب ترعى ذات يوم في حاه فرماها بسهم فخرجها وجاءت الناقة الى صاحبها مجروحة فصرخ بالويل فلما سمعته البسوس صاحت واذا له نزيلها فاتصر جساس لحالته وقصد كليلاً وهو منفرد في حاه فطعنه بالرمح فقتله وهرب ولما شاع امر كليب في القبيلة نهض اخوه المهمل وكان من جبابرة

العرب لينتقم من بني بكر فشمر للحرب واجتمعت اليه فرسان تغلب وجرى بين الفيلتين عدة وقائع يطول شرحها كان اكثر النصر فيها للمهلل وما زالت الفتنة بينهما نائرة حتى انتهى الحال بقتل جساس فعند ذلك كف المهملل عن القتال ورجل الى اليمن لطفي جرة الحرب بعد ما كانت قد دامت على قول الاكثرين مدة اربعين سنة

ومن حروب العرب ايضاً حرب سباق الخيل بين بني عبس وفزارة بسبب السباق بين داحس فرس قيس بن زهير سيد بني عبس والغبراء فرس حذيفة بن بدر سيد بني فزارة واختلفوا بسبب هذا السباق فثارت الحرب بينهم واشتدت وطالت سنين كثيرة ثم اصطلمت عبس وفزارة وانفرد قيس عن بني عبس وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فتنصر بها ومات

الباب الرابع

في ذكر دول العرب الاسلامية

وسنة ٦٢٢ للمسيح ظهر في مكة محمد بن عبد الله صاحب الشريعة الاسلامية فدعا العرب الى الاسلام وعبادة الخالق لانهم كانوا على ضلال يعبدون الاوثان ولا يعرفون الحلال من المحرام ويصرفون اوقانهم بالحروب والغارات وارتكاب المعاصي فشق عليهم ذلك الامر وامنعظوه وجرروا عليه وحاربوه فنصره الله عليهم ففقر جبابرهم وفرسانهم وكسر اصنامهم واوثانهم ثم فتح الفتوحات الجليلة وتغلب على بلاد العرب

ونولى امر الاسلام بعد محمد ابو بكر الصديق سنة ٦٣٢ بعد الميلاد وكان من سادات بني هاشم واشرافها وفي اول خلافتهم ارتد عدة قبائل من العرب

عن الاسلام وظهروا الخلاف والعصيان فقاتلهم وانتصر عليهم وادخلهم تحت
الطاعة والانتقاد ولما نهدت له البلاد العربية شرع في المغازي والفتوحات
فارسل الامير خالد بن الوليد المدعو سيف الله وابا عبيدة بن الجراح في
جيش عظيم لافتتاح المالك والبلدان وفي مدة قصيرة افتتح خالد جانباً من
بلاد العم وتغلب ابو عبيدة على اطراف سورية بعد ان كسر جيشاً عرمرماً من
جنود الرومانيين كان قد ارسلها الملك هرقل للدفاع والحماية عن تلك
البلاد واختلف المؤرخون في وفاة ابي بكر فمنهم من قال انه مات مسبوماً
وقال آخرون انه اغسل في يوم شديد البرد فحم خمسة عشر يوماً ولما حضرته
الوفاة عهد بالخلافة الى عمر ثم توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة الموافقة لسنة ٦٣٥
مسجبة وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة اشهر

وتولى بعده عمر بن الخطاب سنة ٦٣٤ وكان من احسن الناس سيرة
وعدلاً موصوفاً بالزهد والاستقامة بويع بالخلافة يوم وفاة ابي بكر وقال في
اول خطبه يا ايها الناس ما فيكم احد اقوى عندي من الضعيف حتى آخذ
الحق له ولا اضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه وهو اول من سي
امير المؤمنين وكان اول شيء امر به عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش
وولي مكانه ابا عبيدة بن الجراح وكانت هنة متجهة الى الغزوات والحروب وفي
ايام خلافته فتح بلاد العم وانهمز كسرى يزجرد واحصى بلك الاثراك ثم فتح
الشام وبلبك وحلب وانطاكية والقدس وجميع مدن فلسطين وانتهى الامر
اخيراً انه افتتح الديار المصرية على يد عمرو بن العاص بعد قتال شديد .
وكان بالاسكندرية مكتبة يونانية شهيرة مشتملة على عدد كثير من الكتب التاريخية
وانواع العلوم والآداب القديمة فكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب
يذكر له هذه المكتبة ويستشير فيها فاجابه عمر ان يفحصها اولاً فان وجد فيها
ما يوافق نص القرآن فلا حاجة بها وان كانت تضاده فاعادها اولي فلما

وقف عمرو على هذا الخطاب احرقها بقائها^(١) واستمر عمر بن الخطاب في خلافته الى آخر سنة ٦٤٤ وفيها طعنه رجل يقال له ابو لؤلؤة وهو يصلي في المسجد بخبر في خاصرته وتحت ستره وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة اشهر وثمانية ايام

وكان هذا الخليفة بمكان عظيم من العدالة شديد الحرص في حماية الدين وحقوق الخلافة فقال ذات يوم وهو يخاطب على المنبر ايها الناس من راي منكم في اعوجاجا فليقومه فقام رجل من وسط الجماعة وقال والله لو راينا فيك اعوجاجا لنومناه بسيفنا فقال الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقاوم اعوجاج عمر بسيفه

وتولى بعده عثمان بن عفان وفي ايامه امتدت فتوحات الاسلام الى بلاد المغرب وكان قد وقع بين المسلمين اختلاف وانقسام من جهة عثمان ونفر اكثر الناس منه حتى كادت تضرم بينهم نيران الحروب وسبب ذلك انه كان قد ولي قوما من افارية واهل بيته على الملحقات والاقاليم الاسلامية من لا يصلحون للرياسة ولا لهم معرفة في امور السياسة . وكان قد عزل ابا موسى الاشعري احد اعيان الصحابة عن ولاية البصرة وولى عوضا عنه خاله عبد الله بن عامر ثم عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن ابي السرح اخا عثمان من الرضاة فهاج اعيان الشعب من جرى ذلك وحقدوا عليه ورفعوا راية الخروج عن طاعته واجتمع به الاشراف والسادات وطلبوا منه ان يعزل لم كاتبه مروان وعبد الله المذكور عن ولاية الديار المصرية فاجابهم الى ذلك باتفاق الامام علي وعزل لم عبد الله عن ولاية مصر وولى

ان هذا الخبر مأخوذ عن مورخين افرنج وعرب منهم الشيخ احمد المقرئ في الشهر اذ يقول في المجلد الاول من كتاب تاريخ الخطط والاثار صفحة ١٥٩ ان حريق مكتبة اسكندرية من عمرو بن العاص كانت ياشارة من عمر ابن الخطاب ولكن المتأخرين من المورخين انكروا وقوع هذه الحادثة وناقضوها ببراهين وادلة مستطيلة والله اعلم بالحقيقة

عليها محمد بن ابي بكر وكتب له امراً بالولاية فاخذ محمد الامر وتوجه يومئذ الى مصر في نفر من قومه فينما هم في الطريق اذا بعبد على هجين آتياً من ورائهم وهو محمد في مسيره فقالوا له الى ابن انت قاصد قال الى العامل بمصر قالوا هذا عامل مصر يعنون محمد بن ابي بكر قال بل العامل الآخر يعني عبد الله بن ابي السرح ففتشوه فوجدوا معه كتاباً بنحتم عثمان بقول له انه اذا جاء محمد بن ابي بكر ومن معه وقالوا بانك معزول واروك كتابي فلا تقبل واحمل في قتلهم واطل كتابهم واستنفر في مأموريك فلما وقف محمد بن ابي بكر على هذا الكتاب اندهش وحار ورجع في الحال بن معه الى المدينة وجمع اعيان الصحابة ووقفهم على ذلك الخطاب فازداد حنقهم على عثمان ودخلوا عليه وسالوه عنه فاعترف بالحنتم وخط كتابه وحلف بالله انه لم يامر بذلك ولا عنده اطلاق هذا الامر فطلبوا منه ان يسلمهم كتابه مروان لينتقموا منه فابي وامتنع ثم عظميت الفتنة ونحزب الناس واشتهروا السلاح وهجم على داره جمهور من الشعب منهم محمد بن ابي بكر واحاطوا بها وصموا على قتله وبعد ان حاصروه اياماً قليلة كسروا ابواب القصر ودخلوا عليه وقتلوه سنة ٢٥ من الهجرة وكانت مدة خلافته اثني عشرة سنة الا اثني عشر يوماً ومكث ثلاثة ايام ولم يدفن^(١)

ثم جلس بعده على سرير الخلافة علي بن ابي طالب سنة ٦٥٥ بويج بالخلافة يوم قتل عثمان ولما سالوه البيعة قال لا حاجة لي في امركم فاخثاروا لكم رجلاً غيبري ومها اخترتموه رضيت به واكون وزيراً خيراً من ان اكون اميراً فابوا الا مبايعته ثم انهم بايعوه وجعلوه خليفة عليهم . وكان الامام علي من الفرسان المشهورين والابطال المعدودين وهو ابن عم محمد وصهره وزوج ابنته فاطمة وكان قد وقع بسببه بين الاسلام اختلاف ومنازعات من جهة ترتيب الخلافة بعد محمد فاهل السنة يعتبرون ان هذا الترتيب الذي جرى لغاية خلافة الامام علي كان على حقه والشيعه يقولون ان علي بن ابي طالب كان الاحق

بالقدم في الخلافة وكل فرقة نورد دلائل وبراهين تؤيد مدعاها
 وكانت مدة خلافة الامام علي كلها عبارة عن تكميل فتوحات ومغازي
 فازدادت احكامه وامتدت ولايته بافتتاح ملكة الهم وجميع بلاد مصر والعرب.
 وكان كسرى يزدجرد قد نهض لاسترجاع بلاده ولكنه لم ينج بمشروعه لان
 القبائل والشعوب التي كانت قد نعصت له خذلته وتركته وبينا كان عازماً
 على الهزيمة والفرار خائفة خادماً وقتله . وكانت خلافة علي خمس سنين
 الاثلاثة اشهر وسبب موته انه وثب عليه جماعة من الخوارج فضربه احدى
 بسيف في جبهته فات كما سيأتي بيان ذلك في ترجمة معاوية بن ابي سفيان
 راس الدولة الاموية وتولى بعده ابنه الحسن بن علي بن ابي طالب فحكم نحو
 ستة شهور ثم جاءت دولة بني أمية

الباب الخامس

في ذكر بني أمية

كان هؤلاء القوم وبنو هاشم حياً واحداً ينتمون لعبد مناف وهم من اشراف
 عرب قريش وساداتها الا ان بني أمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم واوفر
 رجالاً وكان لهم قبل الاسلام شرف وفخر فلما مات عثمان بن عفان وهو الخليفة
 الثالث من بني هاشم اختلف الناس على خلافة علي بن طالب لانه من آل
 هاشم ورجعوا الى امر العصية الطبيعية التي لا تنفارق الانسان الا ان عساكر
 علي كانت في ذلك الوقت اكثر عدداً لتوطيد كرسي الخلافة فلم يكن سبيل
 لبني أمية او غيرها من طوائف العرب ان تقتصب الخلافة منه ولكن لسبب
 كثرة حروب الخارجية مع الانشقاقات والتجزيات الداخلية ضعفت شوكة

بني هاشم فنهض معاوية بن ابي سفيان الاموي في طاب الرياسة والاخذ بنار
عثمان بن عفان من علي بن ابي طالب مع ان علياً لم يكن له شركة في قتله
ورفض حق علي للخلافة فوافقه على ذلك جماعة من الاشراف والاكابر من
جملتهم عمرو بن العاص الذي كان يومئذ عاملاً في مصر وبايعوه بالخلافة
وجرت بين علي ومعاوية وقائع هائلة يطول شرحها قتل فيها الوف كثيرة
من القواد والفرسان واكابر الاعيان ثم نهادنا واقتربا وكان قد هاج غضب
اية الاسلام وامرائها في مكة وغيرها من البلاد واشتد حنهم بسبب هذه المشاحة
والفتنة العظيمة وذكروا اصحابهم واخوانهم المقتولين وقالوا لو قتلنا اكابر القواد
لارحنا منهم العباد وانفذنا الامة الاسلامية من هذه البلية فانتدب لهذا العمل
ثلاثة الخصاص وهم عبد الرحمن بن ملجم وعمر بن بكير والمبرك بن عبد الله
فقال ابن ملجم انا اكفيكم علياً وقال البرك انا اكفيكم معاوية وقال ابن بكير
انا اكفيكم عمرو بن العاص وتواعدوا لسبع عشرة قضي من شهر رمضان فقتل
ابن ملجم علياً كما تقدم واما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربه بالسيف
فاخطاه فامسكوه فقال لمعاوية اني ابشرك فلا تقتلني قال بماذا قتال رفيقي
قتل علياً هذه الليلة فقال كيف ذلك فاخبره بواقعة الحال فقتله معاوية
واما ابن بكير فجلس تلك الليلة يتربص عمرو بن العاص فلم يخرج من منزله
وبعد موت علي قويت شوكة معاوية وانحطت منزلة الحسن بن علي فخلع
الحسن نفسه من الخلافة خوفاً من العواقب وانتقلت الجماعة على بيعة معاوية
فبايعوه في منتصف سنة احدى واربعين من الهجرة

ولما استقام الامر لمعاوية وتمكن من سرير الخلافة جعل كرسي مملكته بمدينة
الشام وامتدت احكامه على مصر والحجاز وخرسان وسائر اقطار الاسلام . ثم
نهض لحاربة الرومانيين وافتتاح مدينة القسطنطينية ويقال انه غزاها
خمسة اعوام متتابعة في جوع كالجراد المنشر فكان يفصدها في زمن الصيف
ويرجع عنها في فصل الشتاء ولم يتمكن منها . وكان احد اليونانيين المدعو

كلينيكيوس من مدينة هيلوبوليس قد اخترع حراريق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وجاء بها الى القسطنطينية ومن عجيب خواصها انها كانت اذا اشتعلت لا تطفأ واذا مست الخشب اشعلته في الحال واعدمته واذا القيت على عسكر اهلكته وفي المرة الاخيرة من هذه الغزوات خسر معاوية جميع مراكبه وجيوشه بواسطة هذه الحراريق واضطر ان يتحول عن المدينة رغماً وقهراً بعد ان عقد صلحاً وتعهد لملك القسطنطينية ان يدفع له خراجاً عن ثلاثين سنة . وكانت مدة خلافة معاوية المذكور نحو عشرين سنة ومن افاضل ملوك هذه الدولة عبد الملك بن مروان جالس على سرير الخلافة سنة ٦٩٢ مسيحية وهو اول من ضرب السكة الاسلامية سنة ٧٦ هجرية وبالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش فكانت الهيرية والحالدية واليوسفية اجود نقود بني امية وكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة

ثم تولى بعده ابنه الوليد بن عبد الملك وهو الذي بنى الجامع الكبير بدمشق المشهور بالجامع الاموي وكان في جانب الجامع كنيسة للنصارى تعرف بكنيسة ماريوحنا فهدمها الوليد وادخلها في الجامع . وفي ايام هذا الخليفة امتدت فتوحات الاسلام الى داخل افريقية وتوغلت جيوشها في سهولها وصحاريها واتصلت غزواتها الى جبل الاطلس واخضعت قبائل المغاربة الكائنة على الشواطئ البحرية واستولت على مدنها وقلاعها وادخلت اهلها في الديانة الاسلامية واخافت قلوب الناس بقوة سطوتها وغاراتها . ولما تهت لها تلك الديار علفت امارها بافتتاح بلاد الاندلس ابي ملكة اسبانيا المجاورة لها وشرعت في الاستعداد للتغلب على سواحل اوربا الكائنة تجاه شواطئ افريقية فجندت الجنود وجهزت المراكب وقصدت تلك النواحي والاطراف ولكنها بعد حروب كثيرة ارتدت راجعة الى الوراء بدون فائدة وما زالت تترقب الفرص من وقت الى وقت حتى حدث بعض اضطرابات داخلية في اسبانيا بين ملوكها واشرافها ففتحت الباب لدخول الاسلام اليها كما سنين ذلك في تاريخ تلك

الامة لان ذلك من متعلقاتها . اما هنا فنقول بانه في اوائل القرن الثامن اذ كان موسى بن نصير عاملاً على بلاد المغرب من طرف الوليد بن عبد الملك والملك رودريك واليا على اسبانيا عبر قوم من اشراف الاسبانيين الى افرقية واتوا موسى وطلبوا منه ان يقيم حرباً على الاندلس ويقيم من ملكها رودريك الذي كان اغضب تاج الملك بدون حق . فاجابهم موسى الى طلبهم من بعد ما استأذن الوليد في ذلك وارسل طارق بن زياد وهو قائد من قواد العرب مجهمور من الابطال والفرسان لافتح تلك البلاد فسارهم الى تلك الاطراف ورسا بسفينة تجاه جبل الفخ الذي تسمى باسمه اية جبل طارق الى يومنا هذا . وكان الكونت جوليان احد اشراف اسبانيا من جملة اخصام رودريك وذا سطوة وصولة فاتخذ سراً مع المسلمين وسهل لهم مساعيهم فاستولى طارق على المدينة التي على حافة الجبل المذكور ثم احرق جميع سفينة بالنار لينقطع امل عسكره من الرجوع قبل الغلبة والاتصار فاشتبك حيثئذ القتال بينه وبين الاسبانيين وحدث بينها عدة وقائع بسيطة الى ان دهم ملك اسبانيا بتسعين الف مقاتل فالتحمت الحرب بينهم في مكان يقال له سهل نهر كودالت وذلك يوم الاحد قبل غاية شهر رمضان بيومين سنة ٩٢ للهجرة وكان يوماً مهولاً انتشب فيه القتال عند طلوع الفجر وكانت لوائح الثبات والنشاط تلوح على اوجه الفريقين مع ان عدد الاسبانيين كان اربعة اضعاف عدد العرب وكانت عساكر الاسلام اكثرها من المغاربة فتجدت وصبرت وقاتلت قتالاً فوق طاقتها فاجأت عساكر الاسبانيين الى الهرب والفرار بعد ان قتل منها مقتلة عظيمة وغرق ملكها رودريك في النهر ولما بلغ موسى بن نصير خبر هذا الانتصار تجهز بجيش جرار وسار بنفسه الى تلك الديار وجال بجنوده تجاه مدينة طليطلة التي كانت يومئذ عاصمة المملكة فافتتحها وملكها وما زالت الاسلام تنجح المدن والحصون حتى انها في اقل من خمسين سنة استولت على جميع اقطار اسبانيا وصارت المملكة في قبضة ايديهم لا مشارك لهم فيها ولا

منازع ما عدا جبال استوريا التي النجا اليها الامير بيلاجيوس احد رجال العائلة الملكية مع جمهور عظيم من اتباعه فعصوا فيها واستقلوا بانفسهم . وكان حكم الاسلام ممتداً من البحر المتوسط الى جبال البرن الواقعة على شالي البلاد . ومع كل ذلك لم يكتف المسلمون بهذه الانتصارات العظيمة بل تقدموا وقطعوا تلك الجبال المذكورة ودخلوا تخوم فرنسا قاصدين ان يمتلكوها ويستولوا على باقي ممالك اوروبا فاستعد لقتالهم الملك كارلوس مارتل خوفاً من غائلتهم واقامهم بعسكٍ عديد بالقرب من مدينة طور وبعد وقائع هائلة من المجانيين ظفر ملك فرنسا بهم وشنت شملهم وقتل منهم على ما ذكر مورخو الافرنج نحو ثلاث مية الف نسمة وانهزم المسلمون ومن ذلك الوقت ضعفت شوكتهم في تلك البلاد ولم يعد يحكمهم ان يثيروا حرباً ثانية على تلك الجهات التالية . وكانت مدة خلافة الوليد بن عبد الملك تسع سنين وتولى بعده اخوه سليمان ثم غيره وكان آخر خلفاء هذه الدولة مروان بن محمد بن مروان فحكم نحو خمس سنين ومات قتيلاً سنة ١٢٢ هجرية الموافقة لسنة ٧٥٠ مسيحية وبهوتة ظهرت الدولة العباسية فكان عدد خلفاء هذه الدولة اربعة عشر

الباب السادس

في ذكر الدولة العباسية

وكانت دولة الاسلام دولة واحدة في ايام الخلفاء الاربعة وبني امية من بعدهم لاجتماع عصبية العرب ثم ظهر من بعد ذلك امر الشيعة من سلالة العباس عم محمد فادعوا بان لهم حقاً بالامامة ووافقهم على ذلك حزب كبير من الناس في ايام مروان آخر خلفاء بني امية . فكان الامويون يضعون على

ثيابهم اشارة بيضاء والعباسيون علامة سوداء واما الفاطميون الذين ينتسبون الى علي وفاطمة فانهم كانوا قد تنازلوا عن حقوقهم في الرياسة والملك والتصقوا بالامور الدينية وانعكفوا عليها واشتهروا بالتقوى والصالح بين الناس وامتازوا عن الحزبين المذكورين بمات خضراء ولما كثرت الفخريات والانقسامات واشتدت العداوة بين الحزب الاسود والحزب الابيض انتهى الامر بمحدث حرب بين مروان والعباس الملقب بالسفاح الذي هو اول ملوك الدولة العباسية فكانت الدائرة على بني أمية فقتل مروان المذكور ولم يسلم من ذرية بني أمية غير رجل واحد يقال له عبد الرحمن هرب الى بلاد الاندلس فترحب به الاهالي واحترموه ونبوا هناك نخت قرطبة سنة ٧٥٦ وتولت ذريته من بعده ما ينوف على ميتين وخمسين سنة . ثم اغتصب الخلافة بعدهم بعض امراء المغرب وانحصرت ولايتهم في مقاطعة غرناطة وضعت شوكتهم شيئاً فشيئاً الى ان انقرضت احكامهم من تلك البلاد سنة ١٤٨١ كما سيأتي الكلام عليهم في تاريخ اسبانيا

وتبوا السفاح سرير الخلافة سنة ٧٥٠ للمسيح وكان رجلاً شجاعاً مهيباً عالي الهمة محبوباً من جميع الناس وكان مسكنه بالحيرة واستمر بالملك الى ان توفي بعد اربعة اعوام من حكمه وتولى بعده اخوه المنصور ابو جعفر وكان رجلاً كريم الاخلاق موصوفاً بالذكاء والفراسة وهو الذي بنى مدينة بغداد خوفاً من ثورة الاعداء عليه بالكوفة فشرع في بنائها وكتب الى بلاد الشام وطبرستان والكوفة والبصرة في طلب الصناع والنقلة واختار جماعة من اهل الامانة والمعرفة بالهندسة ممن يعتمد عليهم لمباشرة هذا العمل فخطها وامر بحفر اسسها فاقامت المدينة وجعلها المنصور دار الخلافة وكانت اول مدينة عظيمة في مملكة الاسلام وكان عدد سكانها على ما قيل نحو مليونين . ومات المنصور سنة ٧٧٥ للمسيح بعد ان حكم مدة عشرين سنة وتولى بعده ابنه المهدي بن المنصور عشرين سنة ثم ابنه الهادي بن المهدي وكانت مدة حكمه سنة وثلاثة

اشهر ثم قام بالخلافة بعده اخوه هرون الرشيد بن المهدي جلس على سرير
 الخلافة سنة ٢٨٦ للمسيح وكان هذا الخليفة من اشهر وافضل ملوك هذه الدولة
 عاقلاً مهيباً عالي الهمة موصوفاً بالحلم وحسن التدبير راوياً للاخبار والتواريخ
 محب الشعر والشعراء ويميل الى اهل العلم حتى قيل انه لم يجتمع على باب مالك
 او سلطان من الشعراء والعلماء والندماء ما اجتمع على بابيه وكانت دولته من
 اعظم الدول الاسلامية واكثرها وقائع واجملها رونقاً امتدت فيها التجارة
 واتسعت دوائر العلوم والاداب في جميع البلاد وكسبت الكتب التاريخية
 والادبية وترجمت المؤلفات الفلسفية والعلمية من اللغة اليونانية الى العربية
 وتنافس الكتاب في ترجمتها وكتابتها . وفي مدة حكمه كان على فرانسوا الملك
 كارلوس الكبير المسي شارلمان وكان بينهما مودة والفة وكان الرشيد كثيراً ما
 يكتبه ويهاديه ومن جملة ما اهداه شطرنجاً ثميناً وساعة شمسية من مخترعات
 بلاد المشرق وانواعاً كثيرة من المنور التي لا توجد في البلاد الافريقية
 وارسل له ايضاً مفاتيح كنيسة القيامة في القدس مع امرٍ لنوابه ان يعاملوا الروار
 الذين ياتون لزيارة الاراضي المقدسة احسن معاملة

ومن مناقب هذا الخليفة انه كان انيساً ودبيعاً الى الغاية غير معجب عن
 اصحاب الدعاوي والمحاجات محافظاً على جلب راحة رعاياه وكان يطوف في
 اكثر البالي متخفياً في اسواق بغداد وشوارعها ليتوقف على احوال الناس
 فاذا رأى احداً منهم مظلوماً اعانه وانصفه قيل ان امرأة دخلت عليه يوماً
 وشكت له عن الاضرار والخسائر التي لحقت بها بمرور جيوشه في اراضيها
 فاجابها الرشيد قائلاً لقد جاء في الحديث الشريف انه من عادة العسكر ان
 يضر بالاراضي عند مرورهم بها للغزو والجهاد فيجب على اصحاب الاملاك ان
 تحمل اضرارهم وتقوم بخدمتهم فقالت له على الفور وقد قيل ايضاً ان الملوك
 التي تسمع بظلم رعيتهما تجلب خراباً على ملكهما فاستحسن الرشيد خطابها وامر
 الخازن ان يدفع لها من بيت المال اضعاف خسائرها . وكان الرشيد قد

استوزر يحيى بن خالد البرمكي عند جلوسه على تخت المملكة وكان يحيى قبل
الخلافة كاتبه ونائبه فتمض باعباء الدولة اتم بهوض واظهر رونق الخلافة وكان
كاتباً بليغاً اديباً لييباً موصوفاً بالجد والكرم وفيه يقول القائل

لا تراني مصافحاً كف يحيى اني ان فعلت ضيعت مالي
لو يس الخيل راحة يحيى استخت نفسه يبذل النوال

وكان ولداه جعفر والفضل ابنا يحيى من كرماء الناس وكان الرشيد يميل الى
جعفر اكثر من اخيه الفضل لسهولة اخلاقه وفصاحة لسانه فجملة وزيراً ثانياً
بعد ابيه يحيى وقدمه على جميع خواص وعظائم حتى انه كان يستشير في جميع
اموره واحواله ولا يفعل شيئاً الا باطلاعه ورايه

فيل صنع الرشيد وليمة عظيمة ذات يوم وزخرف مجالسه واحضر ابا
الغنايم الشاعر وقال له صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال
الشاعر

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد احسنت ثم ماذا فقال

يسعى عليك بما اشتهيت لدى الروحاح ابو البكور

فقال حسن ثم ماذا فقال

فاذا النوس تقفعت في ظل حشجة الصدور

فهناك تعلم موقناً ما كنت الا في غرور

فبكى الرشيد فقال جعفر بن يحيى لابي الغنايم ارسل اليك الخليفة لتسره

فاخرته فقال الرشيد دعه فانه رانا في سرور ونعيم عظيم فكره ان يزيدنا منه

وكان الرشيد يحب جعفر حباً عظيماً ومن فرط حبه له زوجه باخيه العباس

بشرط ان لا يقع بينه وبينها ما يقع بين الرجال والنساء وذكر المورخون ان

هذه الزيجة كانت لرفع الحجاب بينها وبين جعفر في حضرة الرشيد على المائدة .

ويقال ان جعفر قد خان هذا العهد وتزوج بها سرا وكان كثيرون من

حصاده ومبغضيه قد وشوه الى الخليفة وذكره بالفبيح حتى مقتله ونفر منه ثم قتله بعد ذلك وقبض على ابيه واخوته واهله وكانوا خمسين نفراً فحبسهم وقتلهم واستوزر بعد جعفر الفضل بن الربيع ولكنه ندم اخيراً على ما فعل

وكان الرشيد مع كل هذه الاوصاف والمناقب ذا شجاعة وبأس لا يبالي بالمخاطر والاهوال ويقال انه انتصر في ثمان حروب حضرها بنفسه وقاتل فيها قتالاً حسناً. وكان قد ارسل رافع بن الليث حكاماً على اعمال خراسان فيبوصلو اليها خلع الطاعة واظهر العصيان ولم يكف بذلك بل اغار على مدينة سمرقند واقتحمها وقتل عاملها وملكها فلما بلغ الرشيد هذا الخبر ساءه جداً وخرج الى قتاله وعند وصوله الى مدينة طوس من اعمال خراسان مرض مرضاً شديداً ولما زاد عليه الحال التفت الى وزيره الفضل وقال

احببنا ما كنت اخشى دنوه رمتني عيون الناس من كل جانب
فاصبحت مرحوماً وكنت محسداً قصبراً على مكروه مر العواقب
سابكي على الحب الذي كان بيننا واندب ايام السرور الذواهب
ثم مات ودفن هناك وكانت وفاته سنة ٨٠٩ للمسيح ونولى بعده ابنه الامين وما يحكى عنه انه كان ضعيف الراي منهمكاً باللذات والملاهي مدمناً الخمر مشتغلاً بولائه ومسراته غير ملتفت الى امور الخلافة وكان قد وقع بينه وبين اخيه المامون فتنة وعداوة فتعزب مع المامون كثير من العساكر وقواد الجيوش وجرى بين الاخوين حروب ووقائع يطول شرحها قتل فيها الامين وكانت مدة حكمه نحو اربع سنين ونولى بعده اخوه المامون فكان رجلاً شجاعاً مهيباً موصوفاً بالحذافة والادب متخلقاً بمجمل الاخلاق مشغولاً بطالعة النوايج والسير وكان له مشاركة في كثير من العلوم والفنون ولا سيما في علم الافلاك والنجوم وكان ديوانه مشحوناً بالعلماء والشعراء وارباب الانشاء ويقال انه عند جلوسه على سرير الخلافة جمع مكتبة عظيمة من الكتب اليونانية المنقذة وامر بترجمتها الى اللغة العربية من جملتها كتاب اقليدس في فن الهندسة لامتداد

المعارف بين الناس حتى فاق على ابيه وامتاز في انتشار الفوائد والآداب وكان مع هذه الاوصاف والصفات من ارباب الغزو والفتوحات فهو الذي غزا بلاد صقلية في اوروبا وتغلب عليها وافتتح جزيرة كريت وغيرها من مدائن الشرق التي كانت تحت نسط الرومانيين واستمر بالخلافة نحو عشرين سنة الى ان توفي وقام بالخلافة بعده المعتصم بالله فاستخدم في بابه نحو خمسين الف نفر من الاتراك النورية لمحافظة الثغور والحدود الاسلامية وكانوا يزدادون في العدد والقوة يوماً بعد يوم الى ان قويت شوكتهم وصار يخشون من باسهم وسطوتهم وصاروا على نمادي الايام اصحاب النهي والامر فكانوا يقتلون ويولّون من شاعوا من الولاة والعمال حتى لم يعد للخليفة في ايامهم من الحكم الا مجرد الخطبة والاسم وجميع الامور في ايديهم كما كانت في ايدي المالك في الديار المصرية واستمر الحال على مثل ذلك الى ايام المعتضد بالله سنة ٨٦٢ للمسيح حينما وقعت المناسد والفتن في الدولة العباسية وضعفت شوكتها بعد ذلك الغزو والاقتدار وما زالت في انحطاط وسقوط حتى تضعفت اركانها واختل عقد نظامها وفقدت اكثر املاتها ولم يبق للملوكها من الولايات والمخنفات غير بغداد واطرافها وتغلب عمالها على اكثر اقطارها فخلعوا الطاعة واغصبوا الاحكام بطريق التعدي والعدوان وصاروا دولاً متفرقة وولاً متعددة فكانت خراسان وما وراء النهر لابن سامان وذريته وبلاد البحرين للقرامطة واليمن لابن طباطبا واصبيان وفارس لبني بويه والاهواز واسط لمعز الدولة وحلب لسيف الدولة وديار مصر لاجد بن طولون وغيره من الدول والملوك الذين تغلبوا عليها ايضاً واستقلوا باحكامها في ارملة مختلفة كالاشيدين والفاطيين والايوبيين والمالكيك الجراكسة كما سيأتي الكلام على دولهم وملوكهم مفصلاً في ذكر تاريخ مصر

وما زالت احوال الدولة العباسية في انقسام واختلال الى ان ظهرت الدولة السلجوقية وكانت مساكن اهلها فيما وراء نهر الفرات في مكان يبعد عن بخارا مسافة عشرين فرسخاً وكانوا شعوباً كثيرة وطوائف عديدة وهم قوم من

جنس الاترك التتارية وتلقبوا بالسجوقية نسبة الى جدم سلجوق من بلاد تركستان
 ولما عظم شأنهم واشتهر بين الناس حالم قصدوا بلاد خراسان بجيش جرار
 سنة ١٠٣٧ مسيحية تحت راية طغرليك خيد سلجوق وهو اول سلاطينهم وجرت
 لهم مع ولاية خراسان حروب بطول شرحها فاضعوا الدولة الغزنوية التي
 كانت قصبها مدينة غزنة ابي افغانستان ثم تغلبوا على خوارزم وطبرستان
 وغيرها من ممالك الشرق وخلاصة الامر انهم استظهروا على كثير من البلاد
 ثم امثلوا نيسابور احدى قواعد خراسان واتسع لهم الملك واقتسموا البلاد ثم
 ملكوا بغداد والعراق سنة ١٠٥٧ في زمن خلافة الفاتم بامر الله ولكنهم لم
 يتعرضوا له بسوء وبعد هذه الفتوحات دعا طغرليك نفسه امير الامراء وتزوج
 ابنة الخليفة المذكور وجعله نائباً له في بغداد كباقي العمال والنواب ثم توفي
 طغرليك سنة ١٠٦٣ وقام بالسلطنة من بعده ابن اخيه الب ارسلان وهو
 اسم تركي معناه شجاع اسد فاضع بلاداً كثيرة ثم قام بعده ابنه ملك شاه ابن
 الب ارسلان ففتح الولايات والاقاليم واتسعت عليه المملكة وملك ما لم يملكه
 احد من ملوك الاسلام فامتدت مملكته من شطوط بلاد الصين الى نواحي
 القسطنطينية وخطب له على جميع منابر الاسلام . وكان لملك شاه المذكور ابن
 عم يدعى سليمان وهو الذي اسس ولاية قونية السلجوقية سنة ١١٧٨ التي دعيت
 عاصمتها بعد ذلك بمدينة نيقية وكانت هذه الولاية تتضمن كل بلاد اسيا الصغرى
 تقريباً مع كيليكيا وارمينيا وكانت يومئذ حلب والشام وانطاكية والموصل جميعها
 ولايات سلجوقية مستقلة . وفي ايام هذه الدولة جاءت طوائف الافرنج الصليبية
 الى الاراضي المقدسة وكانت اكثر حروبهم ووقائعهم مع هذه الدولة . وسنة
 ١١٧١ تغلبت الدولة الايوبية الكردية على الاقطار المصرية والشامية ثم بعد
 ذلك بعشرين سنة نهض احد خانات خراسان بجيوش كثيرة واستخلص جميع
 المالك السلجوقية فانقضت واضمحلت وكانت مدة ايامها نحو ١٥٦ سنة وذلك
 من سنة ١٠٣٨ الى سنة ١١٩٤ وفي زمانها كانت الخلافة باقية في بغداد تتعاطى

الامور الدينية فقط ولم يكن لها ادنى سطوة في الامور السياسية
 وعند نهاية احكام الدولة المذكورة ظهر جنكيزخان الشهير وهو من
 قبائل المغول فاخضع كل البلاد الاسلامية ومن ذريته قام هولاكو ملك
 التتر وزحف بما يقرب من الف مقاتل الى العراق ففتح بلاد الري واصبهان وهذان
 واستولى عليهما ثم قصد مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ فحاصرها وافتتحها وقتل المستعصم
 بن المستنصر وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وامر بنهب المدينة فخرج
 النساء والصبيان يستغيثون به فداستهم العساكر وماتوا جميعاً وكانت مصيبة
 عظيمة على المسلمين لم يسمع بمثلا قط ويقال ان الذي احصى ذلك اليوم من
 القتلى الف الف وست مئة الف نسمة وان يكن هذا النقل من مبالغة المورخين
 الاقدمين فلا اقل من كونه يفيد ان الخسارة كانت جسيمة جداً ونهبت
 عساكر التتر من قصور الخلفاء وخزائنها اموالاً و ذخائر لا تُعد ولا تحصى والتوا
 جميع كتب العلم في نهر دجلة وكانت عدداً عظيماً وانتقل منصب الخلافة
 ببغداد من بني العباس الى ملوك التتر من ذلك اليوم وكان عدد من تولى
 من العباسيين بمدينة بغداد من يوم بويغ للسفاح الى ان قتل المستعصم سبعة
 وثلاثين واستولى التتر بعد ذلك على سائر الممالك الاسلامية وبجهم انقضت
 العائلة العربية الملكية واستمرت الحكومة بايديهم الى نحو سنة ١٢٥٠ مسيحية
 حين جاءت دولة الاتراك من آل عثمان فترعت من ايديهم المملكة واستولت
 عليها شيئاً فشيئاً حتى اخضعت بلاد العراق واستولت على الشام والحجاز واليمن
 ومصر والمغرب واسيا الصغرى وبعض اطراف اوروبا كما سيأتي بيان ذلك
 في محله ان شاء الله تعالى وما زالت البلاد باقية تحت نصرفها وخاضعة
 لقوانينها واحكامها الى هذا اليوم

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها
من ابتداء ظهور الاسلام

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	اسم الخليفة	
١١	٦٣٢	ابو بكر الصديق	الخلفاء الراشدون في مكة
١٣	٦٣٤	عمر بن الخطاب	
٢٤	٦٤٤	عثمان بن عفان	
٢٧	٦٥٥	علي بن ابي طالب	
٤٢	٦٦١	الحسن بن علي بن ابي طالب	
٤٢	٦٦١	معاوية بن ابي سفيان	بنو امية قاعدة ملكهم الشام
٦١	٦٨٠	يزيد بن معاوية بن ابي سفيان	
٦٤	٦٨٣	معاوية بن يزيد	
٦٥	٦٨٤	مروان	
٦٦	٦٨٥	عبد الملك بن مروان	
٨٧	٧٠٥	الوليد بن يزيد	
٩٧	٧١٥	سليمان بن عبد الملك	
٩٩	٧١٧	عمر بن عبد العزيز	
١٠٢	٧٢٠	يزيد بن عبد الملك	
١٠٦	٧٢٤	هشام بن عبد الملك	
١٢٦	٧٤٢	الوليد بن يزيد	
١٢٧	٧٤٤	يزيد بن الوليد	
١٢٧	٧٤٤	ابراهيم بن الوليد	
١٢٧	٧٤٤	مروان بن محمد بن مروان	

جدول الدول الإسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها
من ابتداء ظهور الاسلام

اسم الخليفة	تاريخ التملك بعد المسيح	تاريخ التملك بعد الهجرة
العباس الملقب بالسفاح	٧٥٠	١٢٢
ابو جعفر المنصور	٧٥٤	١٢٧
المهدي	٧٧٥	١٥٩
المهدي بن المهدي	٧٨٥	١٦٩
هرون الرشيد	٧٨٦	١٧٠
الامين	٨٠٩	١٩٤
المأمون	٨١٢	١٩٨
المعتصم بالله	٨٢٢	٢١٨
الواثق بالله	٨٤٢	٢٢٨
المستنصر بالله	٨٤٧	٢٣٣
المستنصر بالله	٨٦١	٢٤٧
المستعین بالله	٨٦٢	٢٤٨
المعتز بالله	٨٦٦	٢٥٢
المهتدي بالله	٨٦٩	٢٥٦
المعتد بالله	٨٧٠	٢٥٧
المعتضد بالله	٨٩٢	٢٧٩
المكفي بالله	٩٠٢	٢٩٠
المقتدر بالله	٩٠٨	٢٩٦
القاهر بالله	٩٢٢	٣٢٠
الراضي بالله	٩٢٤	٣٢٢

بنو العباس قاعدة ملكهم بغداد

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء
ظهور الاسلام

اسم الخليفة	تاريخ التملك بعد المسح	تاريخ التملك بعد الهجرة
المتقي بالله	٩٤٠	٢٢٩
المستكفي بالله	٩٤٤	٢٣٣
المطيع لله	٩٤٦	٢٣٥
الطائع لله	٩٧٤	٢٦٤
القادر بالله	٩٩١	٢٨١
القائم بامر الله	١٠٢١	٤٢٣
المقتدي بالله	١٠٧٥	٤٦٨
المستظهر بالله	١٠٩٤	٤٨٧
المسترشد بالله	١١١٨	٥١٢
الراشد	١١٣٥	٥٣٠
المقتفي امر الله	١١٣٦	٥٣١
المستنجد بالله	١١٦٠	٥٥٥
المستضي بنور الله	١١٧٠	٥٦٦
الناصر لدين الله	١١٨٠	٥٧٦
الظاهر بالله	١٢٢٥	٦٢٢
المستنصر بالله	١٢٢٦	٦٢٣
المستعصم بالله	١٢٤٣	٦٤١
	الى	الى
	١٢٥٨	٦٥٧

تابع بني العباس

خلفاء قرطبة في الاندلس			خلفاء الفاطميين في مصر		
هجري	مسيحي	اسم الخليفة	هجري	مسيحي	اسم الخليفة
٧٥٦	١٢٩	عبد الرحمن	٩٠٩	٢٩٧	عبيد الله
٧٨٧	١٧١	هشام	٩٣٦	٢٢٥	القائم ابو القاسم (١)
٧٩٦	١٨٠	الحكم	٩٤٥	٢٣٤	المصور
٨٢٢	٢٠٧	عبد الرحمن	٩٥٢	٢٤٢	المز لدين الله
٨٥٢	٢٣٨	محمد	٩٧٥	٢٦٥	العزير بالله ابي النصر
٨٨٥	٢٧٢	المندر	٩٩٦	٢٨٦	الحاكم بامر الله
٨٨٩	٢٧٦	عبد الله	١٠٢١	٢١٢	الظاهر لاعزاز دين الله
٩١٢	٣٠٠	عبد الرحمن	١٠٣٦	٢٢٨	المستنصر بالله
٩٦١	٣٥٠	الحكم	١٠٩٤	٢٨٧	المستعلي بالله
٩٧٦	٢٦٦	هشام	١١٠١	٢٩٥	الامر باحكام الله
١٠٠٦	٢٩٧	محمد المهدي	١١٢٠	٣٢٥	الحافظ لدين الله
١٠٠٩	٤٠٠	سليمان المستعين	١١٤٩	٣٤٤	الظافر باعداء الله
١٠١٠	٤٠١	محمد المهدي ثانية	١١٥٥	٣٥٠	القاهر بنصر الله
١٠١٢	٤٠٣	هشام من جديد	١١٦٠	٣٥٥	العاقد لدين الله
١٠١٥	٤٠٦	حمود العلوي	الى	الى	
١٠١٧	٤٠٨	القاسم	١١٧١	٣٦٧	
١٠١٨	٤٠٩	بجي			
١٠٢٧	٤١٨	هشام			
الى	الى				
١٠٢١	٤٢٢				
			(١) هولاة الثلاثة استقلوا		
			باحكام بلاد الغرب		
			قبل افتتاح الديار		
			المصرية		

الفصل الثامن

في تاريخ سورية

الباب الاول

في جغرافية سورية وسكانها الاولين

هذه البلاد مجدها شمالاً اسيا الصغرى وشرقاً نهر الفرات وبلاد العرب وجنوباً فلسطين وقسم من بلاد العرب وغرباً بحر الروم وانقسمت قديماً الى قسمين سورية وفلسطين ولكن عند استيلاء الرومانيين عليها بدء يسيرة قبل المسيح اطلقوا على القسمين اسم سورية ولما افتتحها المسلمون سنة ٦٣٢ للمسيح لقبوها بدير الشام. وكانت تدعى في سالف الازمنة باسماء مختلفة منها ارض كنعان نسبة الى كنعان بكر حام بن نوح التي انقسمت البلاد بين اولاده الاحد عشر بعد التبليل ثم دعيته بعد ذلك ارض اسرائيل نسبة الى بني اسرائيل الذين امتلكوها واستقلوا بها وطردها الكنعانيين منها. ثم قيل لها ايضاً الاراضي المقدسة لان الله عز وجل انتخبها واصطفها لشعبه وخصها لعبادته ولا سيما ان المسيح ظهر فيها بالجسد وفيها تم عمل الفداء فحق لها ان تدعى بهذا الاسم وكان يقال لها ايضاً ارض الميعاد بالنظر الى وعد الله لابراهيم انه سيعطيها اياها ولنسله من بعده. ولا يخفى ان هذه الالقب المذكورة لم تكن تنسب وتطلق على جميع بلاد سورية بل اخصت بالجهات الجنوبية فقط واما الجهات الشمالية فكانت مسكناً للفينيقيين

وفي ايام ابراهيم والاباء الاولين كانت فلسطين منقسمة بين قبائل وانحياز

من طوائف الكنعانيين فكان الفينيون والقنزيون والقدمونيون يسكنون
الأراضي الشرقية من نهر الأردن وكان الحثيون والفرزيون واليبوسيون
والأموريون يسكنون غربي النهر في الأماكن الجنوبية المرتفعة وأما الكنعانيون
الأصليون فكانت مواطنهم في أواسط البلاد وهي محدودة من شاطئ البحر إلى
نهر الأردن وكانت مساكن الجرجاشيين واقعة على شرقي بحيرة جنيسارت
المعروفة الآن ببصرة طبرية وأما الحويون والجلبليون فكانوا يسكنون نجاه
الشمال بين ربوع لبنان الجنوبية

وفي أيام موسى عند ما قارب الإسرائيليون الدخول إلى أرض كنعان
لم يكن حدث تغيير يذكر بين القبائل القاطنة يومئذ في الجهات الغربية من
نهر الأردن غير أنه كانت شرقي النهر ثلاثة منازل لم تكن معروفة قبلاً وهي
أرض باشان الواقعة في الشمال شرقي بحيرة طبرية ثم أرض جلعاد في الوسط
ثم أرض مواب في الجنوب شرقي بحر الميت أي بحر لوط . وبعد استيلاء
الإسرائيليين على تلك البلاد اقتسموها فيما بينهم بالقرعة فكان سبط يهوذا
وبنيامين وشمعون ودان واقعا في الأراضي الجنوبية التي سميت بعد ذلك
باليهودية نسبة إلى مملكة يهوذا غلب انفصالها عن العشرة الأسباط وكان
سهم افرايم ونصف سبط منسى ويساكر ممتداً في الأراضي المتوسطة المعروفة
بالسامرة وسهم زبولون ونفتالي وأشير في الأراضي الشمالية التي يقال لها الجليل
وأما راوبين وجاد ونصف سبط منسى الثاني فكانت منازلهم في عبر الأردن
في أرض باشان وجلعاد التي عرفت فيما بعد باسم بيرية

أما الأراضي الواقعة على شواطئ البحر فسكنها الفلسطينيون والفينيقيون
والموآبيون والعمونيون والمدانيون والأدوميون والعاليقيون وأما الفلسطينيون
مع أنهم كانوا قاطنين في سوريا في أيام الآباء القدماء فليسوا بكنعانيين بل
نزلاء غرباء والمرجح أن أصلهم من مصر جاءوا إلى هذه البلاد وقتلوا الحويين
فتغلبوا عليهم وطردوهم وسكنوا مكانهم وامتدت منازلهم من مدينة يافا إلى غزة

وبقيت البلاد في ايديهم عدة قرون وكانوا اشداء الباس وانجحت قوتهم دائماً لمصادمة بني اسرائيل بعد دخولهم الى ارض كنعان وكثيراً ما حاربوهم . واما الفينيقيون فمع انهم من بني كنعان لم يحاربهم بنو اسرائيل وكانت ايامهم معهم في صلح وسلام واذ اشتهر هؤلاء القوم في الازمنة القديمة بالتجارة والغني وشدة الباس وتقدموا في انواع الفنون والصنائع على غيرهم من الناس ولا سيما ان تاريخهم هو من التواريخ المهمة قد افردنا لم فصلاً مخصوصاً لاجل زيادة المعرفة في اخبارهم وتفاصيل احوالهم . واما بنو مواب وبنو عمون فهم من ذرية ابنتي لوط ابن اخي ابراهيم سكنوا الاراضي المجاورة شرقي الاردن بعد ما طردوا اهلها منها وكانوا من القوم الجبابرة العتاة . واما المديانيون فهم من ذرية مديان بن ابراهيم الرابع من زوجته الثانية قطورة وكانوا مجاورين الموابين ومتحدين معهم في حروبهم ومغازيهم وقد انفرد منهم جماعة وسكنوا شرقي البحر الاحمر وعندهم اخيراً موسى عند ما هرب من مصر . واما الادوميون فهم من نسل آدوم او عيسو بن اخنوخ بن يعقوب وكانت منازلهم في جبال سدير الممتدة على شرقي وادي عربة بين بحر لوط وخليج عيلان وعند سبي اليهود الى بابل اتى الادوميون وسكنوا في الجهات الجنوبية الشمالية من اليهودية ومن ذلك الوقت تسمت تلك الاماكن ادومية اي بلاد الادوميين . واما العالقة فهم من نسل عماليق بن حام وكانت مواطنهم في الادوية التي في اسفل جبل سيناء ثم انتقلوا منها وسكنوا في حدود فلسطين الجنوبية وكانوا من اشد الناس عداوة لبني اسرائيل ولم معهم جملة وقائع وحروب ومداولة الايام تمكن بنو اسرائيل منهم وبددوا شملهم واطفأوا خبرهم . فجميع هذه القبائل المقدم ذكرها انقرض اكثرها في زمن الاسرائيليين وبعضها اندرس بعد سبي اليهود الاخير

الباب الثاني

في الدولة السلوقدية ومن خلفها الى هذه الايام

وبعد توفي الاسكندر دخلت سورية تحت حكم سلوقس وهو اول ملوك الدولة السلوقدية واحد قواد جيوش الاسكندر الاربعة الذين اقتسموا بينهم كل البلاد التي اخضعها سيدهم ورئيسهم . فحكم سلوقس غلب وفاء الاسكندر على بلاد مادي وبابلونيا ثم طرد من تلك البلاد سنة ٢١٥ ق م بواسطة مقاومة اتيغونوس احد القواد الاربعة الذي كان سهمة في اسيا الصغرى فهرب الى مصر مستعصماً ببطليموس فاعانته على محاربة اتيغونوس وانتصر عليه في موقعة عظيمة جرت بينها في غرة سنة ٢١٢ ثم رجع الى بابلونيا فقبلته الاهالي بفرح وسرور ثم ضم الى ولايته اشور ومادي فصار ملكاً على الولايات الثلاث ولما قويت شوكة اخضع بلاد فارس وكل اسيا العليا وسار من هناك الى الهند لاجل استخلاص البلاد التي كان قد تغلب عليها الاسكندر فالتقاء ملكها ساندروكونوس بست مئة الف مقاتل وعدد كبير من الافياء ولكنه لم يقع بينهما حرب لان ملك الهند كان قد خاف سطوته فعقد معه صلحاً تحت خمس مئة فيل اعطاه اياها حتى انحب عنه وعند رجوعه الى بلاده جهز جيشاً عظيماً وسار بنفسه الى قتال اتيغونوس المذكور سنة ٢٠١ ق م فانتصر عليه وقتله وازاد ملكته الى بلاده وكان من جملة ولاياتها سورية وفرجيية وارمينية وما بين النهرين ومدينة انطاكية وهو الذي دعاها بهذا الاسم تذكراً واعترافاً لايه الذي كان اسمه انطيوخوس وجعلها كرسي مملكته ويقال ان سلوقس كان متزوجاً بابة ديمتريوس بوليوكريت احد

ملوك اسيا الصغرى وكانت جميلة المنظر فاحبها انطيوخوس ابنه وتعلق بها تعلقاً شديداً حتى مرض ولزم الفراش وكان الطبيب يتعجب من عدم تقدمه للصحة مع كل المعالجة التي كان يستعملها له فلما وقف اخيراً على حفيظة الخير اعلم اباه سلوقس بواقعة الحال وان مرض ابنه ناتج من شدة غرامه بابنة ديميريوس المذكورة فمن فرط محبته بابنه تنازل له عن زوجته وزوجه بها

ومن ملوك الدولة السلوقدية انطيوخوس الثالث او الكبير الذي غزا الديار المصرية واسر ملكها واساء كثيراً الى اليهود في اورشليم وجوارها لسبب تمنعهم عن ان يذبحوا للاصنام فقتل منهم عدداً كثيراً . وقام اخيراً بين اليهود رجالان من المكابيين وهما متانياس ويهوذا فحاربوا جيوش انطيوخوس وكسراه واستقلأا بانفسهما على مملكة اليهودية ولما اتصل الخبر بانطيوخوس اسنشاط غضباً وبما كان زاحماً على اورشليم ليستقم من اليهود وقع عن مركبته فمات

وهذه هي المدة التي فيها كانت سورية في ازهى واهى رونق لانها بعد ذلك ضعفت شوكتها وانحطت منزلتها وصارت ملحقه بغيرها وكثيراً ما قرعت وانقسمت . واستمرت تحت احكام الدولة السلوقدية الى سنة ٦٤ ق م حين اتى الرومانيون واستولوا عليها الى نحو سنة ٦٣٨ للمسيح ثم افتتحها المسلمون ومن ثم صارت مركزاً للخلفاء الدولة الاموية التي جعلت تحت كرسياها في مدينة الشام ثم انتقلت من بعدهم الى الخلفاء من بني العباس واستمرت تحت قبضة احكامهم الى سنة ٨٢٣ حين دخلت تحت تسلط بني طولون الذين كانوا حكاماً في مصر من طرف الدولة العباسية واستقلوا فيها مدةً وبقيت تابعة لمم الى سنة ٩٠٥ حين انقلبت الدولة الطولونية عن تحتها وقامت مكانها الدولة الفاطمية فصارت سورية من جملة ملحقاتها وتوايعها الى سنة ١٠٧٨ حين جاءت الدولة السلجوقية التركمانية وتغلبت على البلاد العربية الشامية الى سنة ١١٤٠ وفي مدة الدولة السلجوقية انت طوائف الافرنج المعروفة بالصلبية وذلك سنة ١٠٩١ وطردها المسلمين من بعض جهات البلاد واستولوا على انطاكية والقدس وصور وطرابلس

اما الشام وحلب مع باقي البلاد الداخلية فاستمرت في ايدي المسلمين وفي مدة اقامة الصليبيين في الديار الشامية كانت حروبهم مع المسلمين متصلة بدون انقطاع ولا انفصال نارة توخذ منهم القدس والبلاد المجاورة لها ونارة يسترجعونها كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً في الكلام على الحروب الصليبية الى ان طردوا اخيراً سنة ١٢١٠ في زمن دولة المماليك فصارت سورية من ذلك الوقت تابعة لدولة مصر وبقيت خاضعة لاحكامها الى سنة ١٤٠٠ حينما افتتحها تيمور لك المغولي الشهير ثم رجعت بعد ذلك الى سلطة دولة المماليك المصرية واستمرت في ايديهم الى سنة ١٥١٧ حين اتى السلطان سليم الاول من بني عثمان فاستخلصها منهم ونزع احكامهم ومن ذلك الوقت صارت سورية تابعة للدولة العثمانية ما خلا بعض مدائن وجيزة حيث تظاهرت فيها العصاة نارة في زمن الامير فخر الدين المعني سنة ١٦٣٥ ونارة في زمن احمد باشا الجزائر البشناق المشهور في الظلم والعدوان الذي ذاقته الناس في مدة حكمه ٢٨ سنة عذاباً شديداً

وسنة ١٧٩٩ اتى الفرنسيون من مصر لافتح الديار الشامية تحت قيادة الجنرال نابوليون بوناپارت فاستولوا على غزة وعسقلون ويافا وغيرها ثم وصلوا الى عكا فحاصروها مدة فقاومهم احمد باشا الجزائر برأ والادميرال سروليم سدني سميت الانكليزي مجراً فانصرفوا عنها بعد ان كادوا يملكونها ثم في سنة ١٨٣١ اتى ابراهيم باشا قائد الجيوش المصرية في زمن السلطان محمود وحاصر عكا التي كانت يومئذ مركز الولاية الشامية وافتتحها بعد ما حاصرها ثمانية اشهر وقبض على واليها عبد الله باشا وارسله الى مصر وشرع في تحصينها وتحصين باقي المدن الشامية وما زالت تحت تصرف احكامها الى سنة ١٨٤٠ حين استرجعتها الدولة العلية بمساعدة انكليز وغيرها من الدول الاجنبية ولم تنزل الى الآن باقية تحت نسلها

وفي سنة ١٨٦ اصطلت نار الفتنة في جبل لبنان بين النصارى

والدروز فامند شرارها الى مدينة دمشق وهاج جهالة المسلمين على المسيحيين
 القاطنين بينهم فقتلوا منهم على ما قيل ما ينوف على الالفين ونهبوا بيوتهم وسلبوا
 امتعتهم فكانت مذبحه هائلة وربما كانوا افنؤهم عن اخرهم لولا توسط الامير
 عبد القادر الجزائري الذي ارسل رجالة الى كل شارع وزقاق وخلص
 كثيرين واثى بهم الى منزله افواجاً افواجاً فكان ذلك داعياً للشاء عليه من
 كل لسان على الارض . وكان الوالي بوشناق في الشام فلم يلتفت الى توقيف
 الهياج كانه راض بما حدث فجازته الدولة بالقتل عند قدوم فواد باشا للتحقيق
 وجرث المصايين بتعويض ما فقدوه واحسنت ببناء البيوت المهدومة وارجعت
 الراجحة في وقت وجيز . واما فتنة الجبل فقد ذكرت عند ذكر لبنان

الباب الثالث

في شعوب سورية ومدنها الشهيرة مع ذكر الملكة زينب المعروفة
 عند اليونان واللاتين بزينويا وشي من اخبار لبنان

اما شعوب سورية فهي ممتزجة من اجناس كثيرة يعسر تاصيلها والمرج
 انهم من نسل مختلط اي عربي وثري وتري وفارسي واوروبي والاديان فيها
 كثيرة فانه ما عدا المذاهب النصرانية ومذهب الحكومة فيها جملة طوائف قلما
 توجد او تعرف في باقي ما لك العالم كالدروز والمناولة والنصيرية والاماعيلية
 والسمرة . وفيها ايضا قبائل كثيرة من عرب البادية شرقي سورية وجنوبها
 الذين الى الآن مع كونهم من تبعة الدولة العلية لا يزالون يعبدون عن الطاعة

والانقياد وكثيراً ما يتظاهرون بالتمرد والعصيان وقلما يوجد بينهم أمن وسلام وهم جوع وقيائل كثيرة متفرقة لوصار الالنفات الى اخضاعهم وتهذيبهم لنشأ عن ذلك فوائد عظيمة للسلطنة لانه فضلاً عن تقدمهم بالمعرفة والتدب ونجاح البلاد بالمكاسب والغنى تزداد المملكة قوةً وسطوةً اذ يمكنها عند الحاجة ان تقيم منهم نحو ثلاث مئة الف مقاتل برسم المحافظة والحمامة

ومن مدن هذه البلاد مدينة انطاكية وهي من اشهر واعظم مدنها القديمة بناها سلوقوس سنة ٢٠٠ ق م وفيها ولد لوقا الانجيلي وبها سميت النصارى مسيحيين اولاً ومن مدنها ايضاً دمشق وهي قديمة من عهد ابرهم سكنها ملوك غسان وفي سنة ١٤ للهجرة افتتحها عمر بن الخطاب تحت قيادة خالد بن الوليد ونقل بنو امية تحت الخلافة اليها سنة ٦٣٤ مسيحية وقد تكرر ذكرها في التوراة في جملة اماكن تحت اسم ارام . وفي هذه المدينة كان اهداء بولس العجيب الى الديانة المسيحية وفيها كانت تصنع قديماً الاسلحة الفاخرة المشهورة كالسيوف والحراب والخنجر وغيرها واما الآن فقد فقدت منها هذه الصناعة لان تيمور لك نقل الى بخارا جميع صناع هذه المهن والصنائع ولم يزل لها شهرة الى الآن في نسج بعض الاقمشة الحريرية وفي شغل الصدف الملبس على الخشب المعروف بعرق اللولو

ومنها تدمر والافرنج يسمونها بالميرا اي محل التخل . قيل بناها الملك سليمان بن داود وقد انكر بعضهم صحة هذا الخبر مستشهداً بكلام المورخ بوسينفوس حيث يقول ان سليمان مد حدود ملكه الى اماكن بعيدة واخذ تدمر وحصنها بالاسوار وسماها تدمر فلو لم تكن تدمر حيث تدمر مدينة كبيرة متجربة لما هم سليمان امتلاكها . ومع ان هذه المدينة قد اندرست وليس لها وجود الآن فان خربها واثارها القديمة تدل على عظمتها العالقة . ومن ملوك تدمر اودينانوس زوج زنوبيا الشهيرة فاته في اول امره كان مساعداً لسابور ملك الفرس عند استناده بلاد سورية سنة ٢٥٦ للبلاد ولكنه اتحد اخيراً

مع الرومانيين وسعى في طرده من البلاد . فلما وقع الامبراطور فالريان في ايدي الفرس طلب اوديناتوس ان يعقد صلحا مع سابور فلم يستجب طلبه ودعاه سابور خائناً فاغناط اوديناتوس من ذلك وخرج على سابور وجاربه وقهره على شطوط الفرات ثم استظهر ايضاً على بعض قواد الرومانيين الذين كانوا قد جاھروا بعصيان ضد السلطنة في ايام الامبراطور غلينوس ونكس مشروعاتهم . فلاجل مكافاته على تلك الصداقة لقبه غلينوس رئيس كل الولايات الشرقية ولكن لم يقبل اوديناتوس ذلك اللقب والزم الامبراطور ان يقر له بالشراكة في السلطنة فجملة شريكاً له سنة ٢٦٤ وبعد ثلاث سنين توفي قتيلاً

وبعد موت اوديناتوس تبوأ تخت الملك زوجته زنوبيا وانفردت بزمام الاحكام وجددت كثيراً من القصور والابنية العظيمة حتى صارت مدينة تدمر في ايامها جنة من جنات الدنيا وامتدت حدود مملكتها من ساحل بلاد صور والشام الى نهر الفرات والعراق وكانت قوية الجنان نادرة الزمان تخطب على العساكر والابطال وتحضر معهم الى ساحة الحرب والتتال فقويت شوكتها واشتهرت صولتها ودعت نفسها ملكة الشرق ولما بلغ مسامع اورليان قيصر ان مملكة تدمر كادت تفوق مملكته عظيمة وغنى داخله الحسد فاخذ يستعد لمحاربتها وحضر الى الشام بجيش جرار وكانت هي ايضاً قد زحفت بجيوشها لقتاله فالتشبت بينهما نار الحرب بقرب انطاكية فانتصر عليها نصرة عظيمة ثم صدمها مرة اخرى بالقرب من مدينة حمص فانتنت راجعة الى تدمر فتبعها الى هناك وضيق عليها الحصار ومنع عنها الامداد وبعد عدة وقائع افتتح المدينة عنوة واسر زنوبيا واخذها الى رومية وعوضها عن مملكتها قصرًا عظيمًا واقام لها نفقة لتعيش بها مدة حياتها

وكان اورليان لما فتح تدمر سنة ٢٧٢ للميلاد قد ترك فيها عددًا قليلاً من العساكر برسم المحافظة فقتلهم الالهائي ولما انصل باورليان هذا الخبر شق عليه

فعاد راجعاً الى تدمر وقتل أهلها ونهب المدينة ثم رماها بعد ذلك بمدة قصيرة ولكنها لم ترجع قط الى رونقها وبهائها الاول ومن ذلك الوقت اخذت في الانحطاط شيئاً فشيئاً حتى انه لم يبق في هذه الايام من تلك المدينة العظيمة سوى رسوم دارسة واطلال بالية وبعض اكواخ حفرية مكان تلك الحصون الشاهقة والمرايح والقصور المبهجة المزخرفة والمزينة باجمل اعمال البشر

ومن مدن سورية ايضاً مدينة بعلبك التي كانت تدعي هليوبوليس اي مدينة الشمس وكانت من اعظم الابنية القديمة ولا سيما هيكلها الكبير الذي بناه انطونيوس بيوس احد قياصرة رومية سنة ١٤٥ بعد المسيح وكان قد حوّل الملك قسطنطين الى كنيسة مسيحية وقد بقي رونقها وبهاؤها زماناً طويلاً واما في هذه الايام فلم يبق الا خرابة وبعض اعمدة عظيمة منتصبة لا يقدر على اقامة مثلها من الملوك الا من كان صاحب ثروة وباس . ثم استولى على بعلبك ابو عبيدة بن الجراح احد قواد عمر بن الخطاب ثم افتتحها نهمور لك سنة ١٤٠١ وفي سنة ١٧٥٩ حدث زلزلة عظيمة هدمت الجانِب الاعظم منها . ومنها مدينة حلب الشهباء وهي قديمة العهد مبنية في بركة خالية من الاشجار باقي ملوؤها من مكان شمالي المدينة يبعد نحو ثلاث ساعات ويكثر في غياضها شجر التوتق ومن ابنتها المشهورة قصر قديم يقال له سراية بني جنبلاط كان لاسلاف المشايخ بني جنبلاط الذين هم من اعيان مناصب جبل لبنان وقد هدمت الزلازل اماكن كثيرة من هذه المدينة وقتلت اناساً كثيرين ولا سيما الزلزلة التي حدثت سنة ١٨٢٢ فانه قد مات بها نحو عشرين الف نفس

ومنها بيروت احدى مدن فينيقية الذي ولد فيها سافخونباتون المورخ الشهير صاحب المؤلفات في ديانة الفينيقيين والمصريين والرسائل النافعة في الطبيعيات وغيرها وقد ترجم بعضها الى اللغة اليونانية في القرن الثاني بعد المسيح ولم يبق منها الا بعض جواشي وقطع طبعت على حدتها سنة ١٨٢٦ وقد ظن البعض ان هذا المورخ كان معاصراً للملكة ميهمليس وقال آخرون

انه كان في عهد موسى ومنهم من جعله قبل المسيح بالف ومائتين سنة وقبل
ست مئة فقط . وما يُعرف من امريروت انه وقت تلك الرومانيين البلاد
الشرقية قصدها جماعة منهم وسكنوها في زمن الملك اوغسطس قيصر الذي
اعطاهما كل حقوق المدن الرومانية الاصلية وسماها جوليا فيلكس على اسم ابنته
وفي الجيل الثالث بعد المسيح اشتهر فيها مدرسة لعلم الفقه فكانت تأتي اليها
التلاميذ من مصر وبلاد اليونان ولقيت بومئذ بمدينة العلماء . وقد تناول هذه
المدينة كل من استولى على فينيقية من الاشوريين والفرس واليونان والرومان
والمسلمين . وفيها بعض اثار تدل على قدميتها وقد دخلت في القرون المتاخرة
تحت ايدي الامراء التنوخية والامراء بني معن والامراء بني شهاب ولهم فيها
ابنية تعرف باسمهم الى الآن

واما جبل لبنان الممتد من شرقي طرابلس الى مرج ابن عامر فكانت
سكانه قديماً على حسب نص الكتاب المقدس من طوائف الحويين والجيليين
ثم خصه يشوع بن نون لسبط اشير من بني اسرائيل ولكنه لم يتيسر لهم ان
يملكوا منه الا جانباً فقط وكانت بعض اقاليمه في مدة حكم اليهود تحت نسط
الفينيقيين الذين كانوا ياتون منه بمخشب الارز والسرو وغير ذلك ويتاجرون
فيها . وقد تناول هذا الجبل قديماً ام كثيرة لم تنزل اثارهم فيه الى هذا اليوم
فانه وجد في بعض قرى جبل الشوف صنم مصري وصنم آشوري ونقود ضرب
الدولة السلوقدية ونقود رومانية وعربية . ويوجد منقوشاً على صخور نهر الكلب
بعض الفاتيل والكتابات تدل على غلبة المصريين القدماء وولاية الاشوريين
ويوجد ايضاً في دير القلعة وغير جهات رسوم واثار رومانية واعمد وقنوات
عظيمة دالة على الامم الذين استولوا عليه . وكان لاهالي هذا الجبل شوكة
قوية في اوائل النصرانية حتى انهم كانوا ينجدون قياصرة الروم سنة ٦٩٤
للمسيح ارسل الامبراطور يوستنيان اثنين من فواده مع جيش عظيم لقصاص
اللبنانيين لانه كان قد طلب امدادهم في حروبه ببلاد الغرب فلم ينجدوه

فحاربوا جيشه وكسروه وقتلوا قواده فسموا مردة وهم امراء المردة وكانت بداية ولايتهم تحت هذا اللقب من سنة ٦٠٠ للمسيح وسنة ٨٢٠ اقبل الامير تنوخ الملقب بالمنذر من اطراف بلاد العرب في قبيلة تنوخ وهي اسم لثلاث قبائل من نصارى العرب وتوطن بعشائره في نواحي لبنان الحالية من السكان وبنوا فيها القرى وسكنوها وكان الامير تنوخ يحكم فيما بينهم وبنوه من بعده الى سنة ١٦٢٢ حين انقرضت السلالة التنوخية . وسنة ١١٢٠ كان قد جاء الامير معين الايوبي مع عشيرته الى الشوف ونزل في صحراء بعقلين واطهر مودة عظيمة لآل تنوخ امراء العرب وانفرد بولايات الشوف واستمر اميراً وحاكماً مدة ٢٠ سنة الى ان مات وهو جد الامراء المعنية واليه ينتسبون واستمرت احكام الشوف في ايدي الامراء من بني معين الى ان انقطعت سلالتهم سنة ١٦٩٧ وكان آخر من تولى منهم الامير احمد . ثم تولى من بعده الامراء آل شهاب وكانوا جميعهم يتقادون الى طاعة وزراء الدولة العلية المنتصبين على اياالة صيدا وكان الوزير يولي منهم من يشاء وهم يولون ويعزلون على القطاعات والاقاليم من شاءوا من المشايخ والامراء . والشهابيون هم من شرقاء العرب وينتسبون الى بني قريش كانوا قد حضروا قديماً الى هذه الديار وسكنوا وادي التيم فتتصر بعض كبرائهم واخذوا مركزاً في لبنان

ومن افاضل حكام لبنان الذين انصفوا بالادارة والسياسة الامير بشير الشهابي كان رجلاً مهيباً فطناً تناول ولاية لبنان من ابن عمه الامير يوسف وهو في سن الثانية والعشرين وكان السبب في انتخابه حاكماً سوء تصرف الامير يوسف المذكور وظلمة في البلاد على ما قبل واستمر الامير بشير في ولايته الى سنة ١٨٤٠ حين استولت الدولة العلية على سورية فخرج من البلاد مع من يلوذ به الى جزيرة مالطة وذلك لسبب عدم تسليمه عند ما دعوهُ الى التسليم ثم توجه الى القسطنطينية وتوفي هناك وتولى مكانه الامير بشير قاسم وكان المذكور لا يعتبر مناصب البلاد ولا يحسب حسابهم ويقال انه كان يسمى

الادب في مجالسهم ويتفوه بكلام تكرهه اسماعهم فكهروه واضروا له السوء
فحاصروه في دير القهر وفي تحت الحصار الى ان حضر السيد عبد الفتاح اغا
حماده بامر المشير في بيروت واخرجه من دير القهر وحضره الى بيروت
ومن هناك انقضت احكام الامراء الشهابيين في جبل لبنان. واذا كانت الفتنة
قد اتسعت بين الدروز والنصارى في تلك الايام قسمت الدولة العلية احكام
البلاد الى شطرين فاقامت قائمقاماً نصرانياً على النصارى في القسم الشمالي
وقائمقاماً درزياً على الدروز في القسم الجنوبي

وسنة ١٨٦٠ تماطلت الفتنة وكثر الفساد بين النصارى والدروز في
لبنان حتى آل الامر لوقوع حرب اهلية بين الطرفين وكانت النتيجة ردية على
النصارى بسبب اخلافهم وعدم انضمامهم واتيادهم بعضهم مع بعض ففتكتهم
الدروز في مذبحتي حاصبيا ورأسيا الواقعتين في ٢٠ و ٢١ ايار من السنة
المذكورة ثم في حصار زحلة ونكة دير القهر التي قتل فيها نحو ٦٠٠ شخص
ذبح اليدهم محصورون في دار الحكومة حيث كانوا النجوى لصيانة انفسهم فكثر
الويل وعظم الشر وتقاطر الناس الى بيروت فارسل الباب العالي فواد باشا
ليهدد الامور وينتقم من المدنيين وارسلت فرنسا باختيار الدولة العلية ورضاها
عشرة الاف جندي للمحافظة ومنع التعدي عند الاقتضاء وكذلك باقي الدول
الاخرى منها من ارسل مراكب حربية ومنها من ارسل نواباً لاصلاح الحال
وتهدد الامور وبعد اجراء ما يلزم اجراؤه من التحقيق ونفي كثيرين من مشايخ
الدروز الى بلغراد وغير اماكن لاجل اشتراكهم في تلك الفتنة استحسنست الدولة
باتفاق الدول على وضع نظم جديدة لهذا الجبل وهي ان تحول احكامه
الى ادارة محلية لا يكون لولاة سورية دخل بها تحت مناظرة مشير من الطائفة
النصرانية من غير اهالي الجبل ليكون متصرفاً به ويشاور راساً الباب العالي
فتوجهت المتصرفية لهذه دولتلو داود باشا الارمني فاقام بامورته حتى انيام
واستمر بالولاية ست سنين وفي مدة احكامه حدثت الفتنة الكرمية نسبة الى

يوسف بك كرم الذي قيل انه رئيسها ومثيرها واستمرت نحو اثني عشر شهراً
ولكنه اضطر اخيراً ان يخضع ويسلم نفسه بواسطة فرانسوا وانتهى به الحال بنفيه
من البلاد. وبعد قيام داود باشا من لبنان حضر مكانه صاحب الدولة نصري
فرانكو باشا سنة ١٨٦٩ فتولى زمام لبنان وقام باعباء الاحكام كما يجب وفي
اوائل سنة ١٨٧٢ توفي وتنصب عوضاً عنه دولتلو رستم باشا وهو ايطالي الاصل
مشهود له في حسن السياسة والاستقامة فحكم الجبل عشر سنين واستراح الاهلون
في كل مدة حكمه ثم خلفه صاحب الدولة واصه باشا سنة ١٨٨٤ وهو المتصرف
الحالي

الفصل التاسع

في تاريخ فينيقية

الباب الاول

في اصل الفينيقيين وعوائدهم واديانهم واكتشافاتهم

انه لا يعلم بالتحقيق اصل هذا الشعب غير انه من نحو اربعة الاف سنة
اخذت سواحل بحر الروم تعمربسكان جاؤا اليها من بلاد الشرق ولكن

من ابن جافا ومكان عددهم ومن هم السكان الذين كانوا قبلهم لا تعرف من ذلك شيئاً ولا نعلم ايضاً حقيقة الاسم الذي عرفوا به في الاصل ولكننا نعلم انهم اشتغلوا بحوالي سنة في هذه السواحل وبنوا فيها المدن والحصون وفاقوا من سواهم في الفنون والصنائع وانفردوا بالشوكة والبأس وصاروا من اشهر القبائل وشاع ذكرهم في اقطار العالم

ولقبوا بالكنعانيين نسبة الى كنعان بن حام بن نوح كما يشير الى ذلك التاريخ الموسوي ثم لقبوا بالفينيقيين وهو اسم يوناني غلب عليهم فان لفظة فينيكيس التي نسبوا اليها انما هي اسم للخل في اللغة اليونانية او بالبحري للتمر وهي تدل في الاصل على اللون لاجل الجوهر اي على لون اسمر مائل الى الاحمرار كلون ثمر الخل في بعض احواله وهي ايضاً اسم لرداء ارجواني كان الفينيقيون يلبسونه. وكان الخل في تلك الايام كثيراً جداً في فينيقية حتى صارت صورة هذه الاشجار رمزاً الى الاهالي والبلاد فكانوا يصورونها على نفودهم. ويقال ان تجارهم اختلطوا كثيراً مع اليونان وحملوا الى بلادهم اثمار الفينيكيس اي الخل برسم التجارة فغلب عليهم هذا اللقب ثم على بلادهم الى ان اصبح اخيراً يدل على لونهم المائل الى الحمرة. ويظن الاكثرون ان هذا اللون كان لون الفينيقيين الحقيقي وذلك مما يؤيد القول بانهم كانوا من اصل حار او افريقي. وكانوا من اعظم الشعوب تمدناً ومن اشهر قداماء الامم وكان تجارهم من اغنى الناس حتى قبل انهم لغنائهم كثرت عندهم الفضة وانتقلت في اسفارهم فكانوا يضعونها في الزنايل ويتخذونها لتعديل المراكب عوضاً عن الرصاص

وهم الذين اخترعوا بناء السفن واول من سافروا بحراً وكانت تجارة العالم البحرية في ايديهم. وقد ارسلت ملوكهم جماهيم عديدة الى اماكن بعيدة من الارض ليستوطنوها ويعمروها وبذلك انتقلت اثار صنائعهم وامتدت دائرة لغتهم ومعارفهم الى جميع الجهات. وقد اجمع راي الاكثرين على انهم هم الذين اعطوا اليونان والرومان احرف كتابتهم واقدم علومهم. ومن العجب انهم مع

قديمهم وكثرة فروعهم في جهات مختلفة من العالم قد تلاشوا وانقضوا من
 زمان طويل ولم يبق لنا من اثارهم الا القليل
 اما صنائعهم فكانت متنوعة وكانوا يصنعون كل انواع الحلي من الذهب
 والفضة وغير ذلك من انواع النفوس والزينة والمعادن والعاج وينسجون



عشرون الهة السوريين والفينيقيين

اجناس الاقمشة فان الانسجة الفينيقية كانت ذات شهرة ورواج في كل العالم
 وقيل انهم اول من اخترعوا عمل الزجاج . اما عوائدهم فكانت ذميمة وقبيحة
 فكانوا يحبون الفخمة والترفه ويحترقون الغرائب . وقد تنبأ الانبياء على صور
 عاصمتهم بالتهديد الهائل والخراب وتم ذلك فيها فيما بعد عما كانت في الهج

روثها واعظم سطوتها واقدارها . واما دياتهم فكانت وحشة بربرية ايضا
كبعض عوائدهم فكانوا يعبدون الاصنام والمخونات ومن اعظم آلهتهم بعل
ويدعى مولوك ايضا اي اله الشمس . واشهر ما قدموا لهذا الاله الذبايح
البشرية من الاولاد الصغار فكانوا يطرحونهم احياء على ذراعيه الممتدين بالنار .



مولوك اله في عمون عند النبطيين

وكان ذلك الاله مصنوعاً من نحاس وله راس عجل مكلّ بناجٍ ملكي
وذراعه ممدودتان كأنه مستعدّ لاحتضان من يقدم له . فكانوا يضرمون نحيه
ناراً مهلكة الى ان يحترق فيلقوا الولد النعيس الحظ على ذراعيه فلا يلبث ان
يموت لشدة الحرارة فيأكلها من قساوة بربرية

الباب الثاني

في ذكر مدائن فينيقية وتخومها وتجارتها وتقدمها ثم انحطاطها
ان التاريخ الموسوي يبين لنا ان صيدون اي صيدا كانت في تلك الايام

اقصى حدود فينيقية شمالاً وغزة اقصى حدودها جنوباً وإن عمالاً كثيرة من
الاهالي الاصليين امتدت في داخلية البلاد الى نواحي فلسطين الجنوبية
وسكنت في جبال اليهودية وفي السهول المجاورة بحيرة لوط والاردن ولم
يزالوا ساكنين في تلك الجهات الى ان حاربهم بنو اسرائيل وطردوهم في زمان
يشوع بن نون وتملكوا اراضيهم ولم بعد لم ذكر بعد ذلك كقبائل متنازة . واذ
كان الفلسطينيون قد اخذوا من ايام ابراهيم وربما قبله براحمون الفينيقيين
المستوطنين في الجهات الجنوبية حتى ازاحوهم عن مواضعهم وابعدوهم بالتدريج
نحو الشمال الى دور عند جبل الكرمل كان يلزمنا ان نكمل اول حدود
فينيقية الجنوبي من جبل الكرمل واما من جهة الشمال فان موسى لم يذكر الا
صيدون ولكن ذلك لا يحدد تخمهم الشمالي لان صيدون كانت في تلك الايام
عاصمة كل الامة . واما باقي قبائل الفينيقيين الذين كانوا مقيمين شمالي صيدون
فربما كانوا ضعفاء لا يستحقون الذكر الخاص ومن ثم دخلوا تحت اسم صيدون العام
واما نخوم الفينيقيين الى جهة الشرق وان تكن غير معروفة تماماً فليس
لنا دليل على انها امتدت الى مسافة اكثر من عشرين الى ثلاثين ميلاً عن
شاطي البحر . فبناءً على ذلك تكون المملكة الفينيقية التي اشتهرت بهذا المندار
قديمًا قد انحصرت في رقعة ضيقة من الارض ممتدة من سواحل البحر الى قاعدة
الجبال من جهة الغرب

ففي هذه الرقعة الضيقة بنيت جميع تلك المدائن الشهيرة التي خاضت
سفنها جميع البحار . اعني عكا واكريب التي يقال لها اليوم الزيب وصور
وصرفند وصيدون ويصوت وجيل والبنون وعرقا وارواد وجبله وزمرة
وسين ومدناً اخرى كثيرة قد فقدت اسماؤها الاصلية وسميت باسماء يونانية
ورومانية كطرابلس واللاذقية وغيرها واعظم هذه المدائن واقواها واوسعها تجارة
مدينة صور فانها كانت اقواها واغناها وهي وحدها التي نعلم ابناء ملوكها
كحيرام الذي كان بينه وبين الملك داود وولده سليمان عهود ومواصلات .

ولم تكن فينيقية جميعها لملك واحد بل كان لكل مدينة منها ملك خصوصي والمرجح ان الجميع كانوا خاضعين لمجلس واحد عمومي كما هو جار الآن في الاتحاد الألماني على انه لم يكن للملك سلطة مطلقة نظراً لسطوة اشرافها وكتبها والذي اوصل فينيقية الى هذه الدرجة من التقدم والشهرة أولاً وجودها على شاطئ البحر ووجود مواني متعددة فيها . ثانياً اشتغال الامم المجاورة لها بحروب متصلة بحيث لم يكن لهم فرصة لمزاجتها في تجارتها . ثالثاً لثقل خصب اراضيها التي لم تكن تكفي عدد سكانها فاضطروا ان يهتموا بامر معيشتهم في الاماكن الخارجة عن بلادهم وكان ذلك موضوعاً لبرازهمهم واسطة لغنائهم وساعدتهم على ذلك احتياج البلاد المجاورة لهم الى ما كان عندهم من انواع اصناف التجارة نظراً لتأخير تدنهم وهكذا غلبت في مدة وجيزة واغنت مدناً كثيرة حتى لم يبق في مجاورة بحر الروم فرضة او مملكة الا وصل اليها اهل فينيقية وليس ذلك فقط بل امتدوا الى البحر المحيط ودخلوا جبل طارق ووصلوا الى بلاد الانكليز وسوها ارض التصدير بعد ان مروا بايطاليا وفرنسا واسبانيا فانسعت بذلك تجارتهم وكثر غنائهم ثم امتدوا ايضاً الى البحر الاحمر ونوسعوا مع اهل مصر والخليج العربي واسيا الصغرى حتى الى الهند هذا اذا تذكر الامم المجاورة لهم التي انشادت طبعاً للتجارة معهم . فكانت فلسطين تقدم بالمحاصيل الزراعية مثل اصناف الحبوب والزيت والخمر . وبابل بانواع المنسوجات من القطن والحرير والصوف والكتان . وقرطاجنة بالذهب والفضة وانواع المعادن الثمينة . وبلاد روسيا واليونان بالنحاس وانواع المعادن الثقيلة . وكبدوكيا واسيا الصغرى بالخبول وانواع المواشي . والهند والعرب بانواع الجواهر والآلي والعاج والعطريات والاقاوية والانسجة الثمينة . والخلاصة انه لم يبق صنف من الاصناف المهدودة بتلك الازمة الا وادخلوه بتجارهم ولا سيما مدينة صور لانها كانت أمماً لتلك المدائن واعظمها سطوة وغنى ومجداً فمن المعلوم انه بوجود وسائط كهذه للتقدم والغنى عظمت صور ونمت

وزعت وسميت ام الجبور وكثرت سكانها وشعوبها بهذا المقدار حتى ضاقت بها البلاد فاضطر اكثرهم للخروج الى جهات مختلفة وسكنوها وفي مدة قصيرة ظهرت منهم ثلاث مدن وهي اوتيك وكاديشة وقرطاجنة . ومن ذلك الحين اخذت تجارة صور تحول شيئاً فشيئاً الى مدينة قرطاجنة . وما زالت صور بحالة التجماع والنمو الى ان زحف اليها شلمنصر ملك اشور سنة ٧٢٤ ق م فحاصرها مدة خمس سنوات ولم يمتلكها وما برحت في عظمتها وسطوتها الى زمن نبوخذنصر عند ما دهم فينيقية سنة ٥٧٢ ق م وفتح جميع مدنها في مدة قصيرة الا مدينة صور فانها ثبنت نحو ثلاث عشرة سنة تحت الحصار ولكنها اخيراً خضعت لعدوها . ثم بعد ذلك استولت الفرس عليها وعلى جميع جهات فينيقية وكان كثيرون من الاهالي يهاجرون من بلادهم ويقصدون قرطاجنة . وما زالت على هذا الحال الى سنة ٢٢٢ ق م حين جاء الاسكندر المكدوني وفتح فينيقية وحاصر صور حصاراً شديداً مدة سبعة اشهر وخرب الجانب الاعظم منها وقتل وباع كثيرين من اهاليها . فمن ذلك الوقت ضعفت شوكتها ولم تعد تقدر على منازعة قرطاجنة من الجهة الواحدة والاسكندرية الناشئة حديثاً من الجهة الاخرى . فاخذ منجرها يتنازل ويتقهقر ويتقل رويداً رويداً الى هاتين المدينتين . وبعد موت الاسكندر اقسام قواده الاربعة ممالك المتسعة فكانت فينيقية تابعة للولاية البطليموسية المصرية ولكنها من ذلك الزمان لم تعد تنمو وما زالت في انحطاط وهبوط من وقت الى آخر حتى وصلت الى الدرجة المعروفة بها الآن ولم يبق من اكثر تلك المدن العظيمة الشان كصور وصيدا وجبيل والبترون وغيرها سوى رسوم دارسة وابراج دائرة واسوار متهدمة وقرى خربة من بقايا تلك الامة الشهيرة التي تلاشت وانقرضت فسبحان من يغير ويقلب الاحوال ولا يعتري ملكه تغيير ولا زوال

الفصل العاشر

في الحروب الصليبية

الباب الاول

في منشأ الحروب الصليبية الى نهاية اعمال التجربة الثانية

ان السبب في اثارة تلك الحروب رجل اسمه بطرس الناسك كان متروجا وذا اولاد ولكن لاسباب لا يعلمها الا الله ترك عائلته وترهب وانفرد سائحاً متنسكاً وبعد مدة التقى ببعض الزوار كانوا ذاهبين لزيارة الاراضي المقدسة في فلسطين فزار مدينة القدس وهناك اخذته الحمية على ان يسعى في استخلاص تلك الاماكن من ايادي المسلمين فبرجوعه الى ايطاليا اجتمع مع البابا اوربانوس الثاني وخاطبه في ذلك باسطاً امامه حالة المسيحيين الشقية في الشرق فوافقه البابا على افكاره وعزم في الحال على اتخاذ الوسائط المقتضية لانمام هذا المشروع فامر بطرس ان يجول في اقطار البلاد منادياً ومبشراً للشعوب بانقاذ النصارى واستخلاص اورشليم من ايدي المسلمين

فاخذ بطرس يجول من مكان الى آخر منذراً ومهزجاً قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل . فاجتاز من ايطاليا الى فرنسا وإلى اكثر جهات ممالك اوربا زارعا بين الجميع هذه الافكار ومهيماً اياهم للنهوض والقيام وفي اثناء ذلك عقد البابا اوربانوس عدة مجامع في ايطاليا وفرنسا وطرح فيها هذه المسئلة امام جمهور الحاضرين منهضاً عنهم للمبادرة والاستعداد

في هذا المشروع . ولأجل ترغيبهم في ذلك وتشيطهم أشهر انعامات خصوصية لكل من يشترك في هذا الامر . فكان الانعام الاول ابطال التاديبات القصاصية المفروضة بقوانين ثقيلة على الخطاة الذين بذلواهم الى بلاد فلسطين كانوا يعفون عن ثقل وصرامة قوانين التوبة التي كانوا ملتزمين بممارستها . الانعام الثاني ان المحاربين الصليبيين يعفون من دفع القوائد . الانعام الثالث ان كل من يصدر منه اغصابات غير عادلة نحو جنود الصليبيين يكون تحت الحرم الكبير الاناثيا . الانعام الرابع ان جميع الصليبيين وافراد عيالهم مع كل نوع من ارزاقهم وامتنعهم يكونون تحت حماية الكنيسة الجامعة والرسولين بطرس وبولس . فتمض حيثذ احد الاساقفة وطلب من البابا انه يكون اول من يجاهد في هذا السبيل فسله البابا راية الصليب وتبعه جملة من رؤساء الدين ومن عامة الناس ورسوا جميعاً على صدورهم صورة الصليب بلون احمر وجعلوا هذه الاشارة على الاسلحة والالوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سمو صليبيين وحررتهم دعيت الحروب الصليبية

قال بعض المؤرخين اللاتينيين انه في اثناء المنادة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهرت عدة عجائب في السماء وعلى الارض منها تساقط بعض النجوم من السماء ظهر بانتقالها علامة حمراء دموية في جوانب الافق ومنها ظهور عمود ناري على شكل حربة ذات حدين بقرب الشمس . ومنها انه شوهد في الجو صور مدن وعساكر وخيول واسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها انه كان يرى في مدة ستة ايام متوالية على اثواب المسيحيين صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لا يمكن لاحد ان يحوها بالماء ولا بالنار . هذه المناظر التي كانت تنراى لم شددت عزائمهم وجعلتهم لا يتوقفون عن السفر وكانوا يستعدون من يوم الى يوم حتى بلغ عددهم ثلاث مئة الف مقاتل

فند ذلك ارتحلوا في اثناء سنة ١٠٩٦ للميلاد طالبين القسطنطينية

وكانوا اجناساً عديدة وقرقاً كثيرة من الايطاليين والفرنساويين والنساويين وغيرهم من سكان اوروبا . وكان بطرس الناسك المقدم ذكره وهو متوشح بثوبه الرهباني قائداً للفرقة الاولى فصار بهم عن طريق المانيا وهونكارييا وبلغاريا . فكانوا يهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الاهالي وقتلوا منهم عدداً كثيراً وبعد ان قاسوا اهوالاً شديدة انتهوا الى القسطنطينية وكان ملكها يومئذ يدعى الكيسوس كومنينوس فاذن لهم ان يقيموا في المدينة الى ان يحضر رفقائهم

وقد اصاب الفرقة الثانية ما اصاب الفرقة الاولى في الطريق وقتل منها عدد وافر بسبب تعدياتهم ولكنهم وصلوا اخيراً الى القسطنطينية وانضموا مع البقية فكان عدد من سلم منهم مئة الف مقاتل فنظم الملك الكيسوس المذكور في مراكبه الى سواحل اسيا ولما انتهوا اليها انضمهم عساكر الاسلام في نواحي نيقية واحاطوا بهم وقتلوا قتلاً شديداً فاستظفروا عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مزارعهم وذخائرهم ولم ينج منهم الا القليل فهكذا كانت نهاية الواقعة الاولى

اما بطرس الناسك فكان قد رجع الى القسطنطينية قبل حدوث هذه المعركة متشكياً من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم الى رؤسائهم ولكن لما بلغه هذه الاخبار المحزنة اقسم بانه لا يرجع قط عن عزه حتى يشاهد حرباً صليبية ثانية

فلما بلغ اهالي اوروبا ما حل باصحابهم من النكال حزنوا جداً وتحركت عزائمهم على اخذ النار وازالة الذل والعار والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيش جرار تحت راية غودافروادوك بربانت وبوليون . ورافقه اخواه اوستاس وبودوين وغيرها من القواد المشاهير منهم روبرتس اخو فيليب ملك فرنسا وروبرتس دوك نورمنديا وغيرها من الدوات . وماروا قاصدين القسطنطينية واستمروا في طريقهم الى ان وصلوا اليها بعد ان فقد

منهم جانب عظيم بسبب الامراض والجوع وفلك اهاالي البلاد التي كانوا يرون فيها . ومن هناك اجنازوا الى شطوط اسيا وعند وصولهم الى نينيه التقفهم جيوش الاسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة انتصرت فيها طوائف الافرنج فاستولوا على المدينة ثم تقدموا بجمعهم الى انطاكية فاخضعوها وتلكوها بعد هجمات هائلة ووقائع متعددة ولما دانت لهم ولاية تلك الاطراف ملأوها بالجنود والفرسان وزحفوا بباقي ابطالهم الى القدس فحاصروها واستفتحوها سنة ١٠٩٩ للميلاد بعد حروب شديدة وصدقات رائعة وجعلوها دار ملكهم

وبعد استيلائهم على اورشليم بثانية ايام نودي باسم غودافرو ملكاً على فتوحات فلسطين الا انه لم يمض عليه اكثر من خمسة عشر يوماً حتى وافاه سلطان مصر بعسكر جرار فالتقاه غودافرو عند عسقلان بجيوش الصليبية فكسره وشتت شمله . ومن ثم اخذ الصليبيون في توسيع دائرة فتوحاتهم فحاصروا جميع المدن الكائنة على الشطوط البحرية وغلبوا عليها كدينة اللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وعسقلان وغيرها فكانت حدود افتتاحاتهم شمالاً الاسكندرونة وجنوباً ديار مصر ولم يبق في يد الاسلام سوى حمص وحماه والشام وحلب مع بعض القرى الحفيرة

وسنة ١١٠٠ توفي غودافرو المذكور وخلفه اخوه بودوين الاول الذي كان والياً على أرفا فحكم ببسالة ونشاط الى ان ادركته الوفاة سنة ١١١٨ فخلفه ابن عمه بودوين الثاني الذي كان والياً على ولاية أرفا في زمن بودوين الاول واستمر حكمة الى سنة ١١٢١ ثم أُرْسِر في حرب مع الاتراك وبقي اسيراً عندهم جملة سنين الى ان انقذه أمير أرفا . ثم تولى بعده الأمير فولك انجو وهو صهره زوج ابنته فحكم ١٢ سنة ومات بعد سقوطه عن فرسه . ثم خلفه ابنه بودوين الثالث وامتدت ايام ولايته عشرين سنة وفي مدة احكامه ضعفت شوكة الافرنج وقلت سطوتهم واستظهر المسلمون عليهم في حروبهم المتواترة واسترجعوا منهم أرفا وبعض الاماكن الاخرى . فاستغاث بودوين المذكور باهالي اوروبا وطلب

منهم المساعدة والامداد فامدوهُ بنجدة عظيمة تحت قيادة كونراد الثالث ملك جرمانيا ولويس السابع ملك فرانسَا سنة ١١٤٧ للمسيح وهذه هي التجربة الثانية

وقبل قدوم ملك فرانسَا بايام يسيرة وصل ملك جرمانيا الى فلسطين في حالة يرثي لها اذ كان قد تلف اكثر من نصف جيشه في الطريق بعضهم بالجوع والمرض وبعضهم بالسيف في المعارك التي اثارها عليهم الاعلاء في اثناء الطريق فلما بلغ سواحل سورية وافته مواكب الاسلام وفتكت بعساكره فانسحب مع باقي جيشه وبينما كان راجعا التقى بلويس السابع وجنوده الذين وصلوا في حالة احسن من حالته فالتفتهم الاتراك في نواحي انطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال مدة ايام وكانت الدائرة على الملك لويس وجنده فانقلب راجعا ببقية قواده وجيوشه ونزلوا في السفن وساروا الى القدس وانضموا الى العساكر اللاتينية مع بقايا العساكر الجرمانية تحت راية ملكها كونراد المذكور ثم زحفوا الى دمشق بالشام بقصد الانبياء عليها املا بانهم متى تمكنوا منها يفوزون بالانتصار التام فتنتهي ثورات اعدائهم المتتابعة ويهدم اركان سطوتهم . وكان الوالي عليها يومئذٍ وقائد جيوشها الامير ايوب مقدم الدولة الابوية وجدها فلما وصلوا اليها اقاموا عليها الحصار ونصبوا على ابراجها المجانيق والالات ونازلوها مدة طويلة بدون نتيجة ولا فائدة ولما يئسوا من استخلاصها انكفوا عنها راجعين فبهذه كانت اعمال التجربة الثانية

الباب الثاني

ذكر الحوادث والوقائع التي جرت من بداية التجربة الثالثة

الى نهاية التجربة التاسعة التي هي ختام الحروب الصليبية

فضعفت شوكة الصليبيين في فلسطين وترعرعت دعائم ملكهم بسبب

انكسار العساكر الافرنجية ونشنت شملهم ولكن مع كل ذلك لم يكنوا عن مواظبة الحروب والغارات وحفظ مراكزهم الى سنة ١١٧٤ حين توفي بودوين الرابع وبعد وفاته نهضت امه سبيلا وتزوجت برجل ذميم الاخلاق قبيح السيرة الا انه كان جميل الصورة وجعلته ملكاً على اورشليم فساء هذا الامر جداً في اعين الامراء ووزراء الدولة الصليبية فنزاعهم وخلعوا الطاعة واظهروا الخلاف والعصيان وكان من جملتهم الكونت ريموند الذي لسبب عدم تحويل تاج الملك اليه دخله الحسد فخان ابنا وطنه وكاتب الاعداء سراً منهضاً عنهم على الحروب وافتتاح البلاد على ما قيل

ففي اثناء هذه الحوادث والتقلبات الداخلية ظهر عدو آخر للصليبيين وهو صلاح الدين الابوي سلطان مصر وكان شاباً شجاعاً وبطلاً مقداماً وقد اسس في مصر مملكة جديدة بعد انقراض الدولة الفاطمية فلما كثرت تعديبات الافرنج على قوافل المسلمين واهانتهم اياهم وتهددهم بافتتاح مكة والمدينة وتمنعهم عن اعطائهم الترضية اللازمة هاجت حمية الاسلام واشتد حنقهم فنهض صلاح الدين من مصر بثمانين الف مقاتل قاصداً فلسطين وجعل طريقه على مدينة طبرية فلما اشرف عليها احاط بها وحاصرها فوافاه ملك القدس بجيوش كثيرة للمدافعة والحماية عنها لانها كانت من اهم مراكز البلاد وهناك النفي العسكران والتعم الجيوشان فاجت الارض بالعساكر وكانت معركة دموية هائلة استمر القتال فيها بين الفريقين نحو يومين كاملين وكانت الدائرة على الصليبيين فانقلبوا راجعين على الاعقاب طالين النجاة بعد ان فقد منهم نحو ثلاثين الف مقاتل ووقع الملك اسيراً مع خواصه واكابر رواده في ايدي المسلمين وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين ٢٣٠ رجلاً من اعيان الافرنج الماسورين وهكذا اصبحت البلاد بدون راس ومدبر في قبضة المتصر

وبعد هذه الحادثة نحو ثلاثة اشهر زحف صلاح الدين بجيوشه على مدينة القدس ونازلها ولم يكن فيها سوى الملكة وقليل من الجنود مع نحو ١٠٠ الف

رجل كانوا قد اتفقوا اليها بسبب الثورة المذكورة واذ لم تستطع الملكة الثبات اكثر من اسبوعين ولا سيما ان افكارها كانت مضطربة من جهة اسر زوجها اضطرت اخيراً الى التسليم تحت شروط معلومة وقع عليها الاتفاق بين الفريقين وهي ان جميع طوائف الافرنج واللاتينيين يخرجون من المدينة ويرحلون بعيالهم وانقائهم وتكون لهم الحماية فيصلون آمنين الى سواحل سورية او مصر وان كلاً من الاهالي يعطي صلاح الدين مبلغاً معلوماً فدية عن حياته والذي لا يقدر على ذلك يفتي كعبه واسير. ولكن صلاح الدين اظهر من علو الهمة والكرم والشفقة والرحمة ما لا مزيد عليه لانه كان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عندهم حتى انه اطلق سبيل ٢٠٠٠ رجل بدون فدية. وعند مقابلته الملكة اظهر من الرقة واللفظ وكرم الاخلاق ما لا يوصف وكان يعزبها بكلامه وبدمعه معاً ويوزع الاحسان على اراذل وايتام القتلى وسمح للمتوكلين على المستشفيات ان يبقوا في المدينة سنة اخرى للملاحظة المرضى والعاجزين والاعضاء بهم وكان حدوث ذلك سنة ١١٨٧ للميلاد

فخرج المنفيون من اورشليم وكانوا نائمين في اراضي سورية يلتمسون لانفسهم المعونة والمساعدة وكثيراً ما كانوا يطردون من نفس اخوتهم المسيحيين بتوبيخات مرّة. وقد توجه اناس من هؤلاء المنكودي الحظ الى القطار المصري فخرّكت احوالهم التعيسة قلوب المسلمين للشفقة عليهم وآخرون سافروا بجرّاً الى اوربا حاملين اخبار ما اصابهم من الدواهي والنكبات

وسنة ١١٩٠ اقامت التجريدة الثالثة تحت راية فيليب ملك فرانسوا والامبراطور فريدرىكوس ملك جرمانيا وريكاردوس الاول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وغيرهم من الامراء فنهضوا جميعاً وقصدوا بلاد فلسطين بمئتي سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات وعند وصولهم الى صور وهي المدينة الوحيدة الباقية يومئذ في ايدي الصليبيين تقدموا منها الى مدينة عكا الحصينة وحاصروها غير مباينين بالاختطار المجدفة بهم. فاستمر القتال بين الفريقين نحو سنتين وخسر

الجمعان عددًا كثيرًا من عساكرها ولكن لما اشتد القتال والمحصار على المسلمين وانقطع عنهم الامداد ونفذت ذخائرهم سلموا اخيراً تحت هذه الشروط وهي انهم يعطون الافرنج ٢٠٠ الف ريال من الذهب ويسلمونهم الف وخمس مئة اسير من عامة الصليبيين ومئة اسير من الاشراف كانوا في سجنهم وان يردوا لهم خشبة الصليب التي أخذت منهم في حرب طبرية . فتسلم الافرنج عكا في ١٢ تموز سنة ١١٩١ بعد ان كان فقد منهم نحو ٢٠٠ الف رجل بين قتيل وجريح ومريض وغريق وكان عدد المحاصرين نحو ٦٠٠ الف مقاتل

ثم بعد افتتاح عكا عزم ريكاردوس ملك انكلترا على حصار عسقلان التي هي على مسافة مئة ميل من عكا فرحف اليها ولما اشرف عليها وافاه الملك صلاح الدين بثلاث مئة الف مقاتل واتشبت بينها حروب هائلة لم يسع بثلمها في الايام السابقة وكانت الدائرة على عساكر المسلمين فانهمز صلاح الدين بعد مقتلة شديدة فقد فيها من جيشه نحو اربعين الف نفر من شعبان العسكر وفاز الملك ريكاردوس بالنصر والظفر واستولى على عسقلان وباقي مدن اليهودية . اما صلاح الدين فالتجأ الى مدينة القدس وحصن قلاعها وارجاعها وملأها بالعساكر والجنود وكان فصل الشتاء قد دخل وبسبب قساوة البرد توقفت الحروب بين الفريقين . وفي بداية فصل الربيع زحف ريكاردوس بجيشه على القدس التي كانت جل قصده وغاية اريه فهاج الاهالي واعتداهم الخوف والرعب عند قدوم هذا الجبار فاقام المحصار على المدينة وضيق عليها من كل الجهات ولكنه لم يلبث طويلاً حتى انسحب عنها اذ وجد صعوبات كثيرة في افتتاحها وكانت عساكره قد ضمرت من الحروب ومشقات الاسفار

وفي خلال ذلك زحف صلاح الدين في ستين الف مقاتل لاستخلاص مدينة يافا وعند ما اوشك ان يفتحها وافاه ريكاردوس فحاربه وهزمه . ثم ان ريكاردوس وصلاح الدين بعد هذه الحادثة اخذا بالمراسلات والمخاطبات في شأن الصلح وترك هذه الحروب المهلكة . وكان اول شيء طلبه ريكاردوس

تسليم القدس وفلسطين وترجيع خشبة الصليب فرفض صلاح الدين هذا الطلب ولم يسمح بتسليم فلسطين . ثم وقع الاتفاق على توقيف الحرب ثلاث سنين وانه في اثناء هذه الهدنة يسمح للمسيحيين ان يزوروا القدس في اي وقت ارادوا بدون دفع جزية وان تهدم قلعة عسقلان وان يافا وصور والبلاد الواقعة بينها تبقى بيد الافرنج . فبعد اتمام هذه المعاهدة سافر ريكاردوس الى اوروبا وبعد ذلك بقليل توفي صلاح الدين وقام بالسلطنة مكانه اخوه سيف الدين . وسنة ١٢٠٢ جهز البابا سلاستينوس الثالث تجريدة رابعة ولكنها انحصرت اعمالها في محاربة ملك الروم في القسطنطينية فتغلب عليه اللاتينيون وامتلكوا منه المدينة وبقيت تحت تصرف احكامهم مدة ٥٧ سنة

وسنة ١٢١٦ تجدد في اوروبا تجريدة خامسة مولفة من مجر وجرمانيين فاجتازوا البحر وجاءوا الى مدينة عكا ونزلوا فيها . وكان حكام سورية يومئذ اولاد سيف الدين المذكور فقاوموهم اشد مقاومة ولم يدعهم يتقدمون ثم وقع بين الافرنج انشقاقات واختلافات فرقمهم وسببت هلاكهم فرجع ملك المجر الى بلاده وتوقفت حركة الجنود الصليبية الى ان اتاها نجدة في السنة الثانية نحو ٢٠٠ سفينة مشحونة بالمقاتل والرجال فشددت عزائمهم ومكثت في الانتصارات ولكن لاسباب غير معلومة تركوا بلاد فلسطين وتوجهوا الى الديار المصرية فاستظهروا على بعض اقاليمها واستولوا على دمياط وحصنوا اسوارها وكانت الاهالي يخافون منها حتى انهم طلبوا اليهم ان يعقدوا معهم صلحا تحت شروط مرضية للصليبيين ولكنهم رفضوها ولم يجيبوا طلبهم . واستمروا منشربين على شواطئ النيل حتى اضعفهم الزمان وقلة الوسائط فاضطروا ان يتنازلوا المصريين عن تملكاتهم في مصر ليسمحوا لهم بالرجوع الى فلسطين

وسنة ١٢٢٨ تجهزت التجريدة السادسة تحت قيادة فريدريكوس الثاني ملك المانيا الذي كان قد نذر على نفسه من مدة طويلة ان ينهض لمساعدة الصليبيين ونجدهم ولكن بسبب ابطائه وتأخره حرمة البابا غريغوريوس

التاسع فاغناط فريدريكوس من هذه المعاملة واستعد لمقاومة البابا المذكور فذهب اليه الى رومية وإهانة وإذلة ثم الزمه ان يخرج من رومية قهراً . وكان في اثناء ذلك قد تولد بين المسلمين بلبلة وانقسامات مع امرائهم والمتقدمين فيهم فاضطر المالك الكامل ناصر الدين ابن سيف الدين والي مصر ان يعقد معاهدة مع الملك فريدريكوس المذكور فارسل يستدعيه اليه وإعداً اياه باعطاء اورشليم . فنهض فريدريكوس باربين الف مقاتل الى عكا ومنها الى القدس بدون ان يعارضه معارض ولا ينازعه منازع . وبعد ذلك عقد بينه وبين المسلمين عهداً وهي ان القدس ويافا وبيت لحم والناصرية وتوابها تكون في ايدي المسيحيين وتحت تصرف احكامهم وان كلاً من الامتين المتحاربتين يسمح لهما ان تمارس فروض مذهبيهما وسننه بكل حرية وبدون معارضة

اما عامة الصليبيين فلم يسروا باعمال فريدريكوس ولم يقبلوا شروطه ومعاهداته السلمية لانهم كانوا يعتبرونه محروماً ومرفوضاً من قبل الكرسي الروماني ولذلك رفضوا طاعته . ولما دخل بطريرك اللاتينيين الى القدس لم يرتض ان يحضر احتفال تويجه فحيثئذ مد فريدريكوس يده واخذ التاج عن قبر المسيح ووضعته على راسه وبعد ذلك هده عاد راجعاً الى بلاده

ثم في سنة ١٢٢٩ نجند لمساءة الصليبيين بسبب ثورات ومقاومات اعدائهم تجريدية سابعة مولفة من انكليز وفرنساويين تحت قيادة بعض الاشراف فسيق الفرنسيون الى سورية وحاربوا جملة حروب كان الاستظهار فيها للمسلمين . وفي السنة الثانية حضرت العساكر الانكليزية وكان قائدها الامير كورنوال وعند ما وجد هذا الامير ان تملكات الصليبيين وحقوقهم الممنوحة بموجب عهود وشروط من المسلمين عن يد ملك جرمانيا قد نُقضت ورُفضت وان اخصامهم قد سلكوا معهم مسلك الجور والعدوان اسرع في قيام الحرب على المسلمين . واذ كان السلطان يومئذ مشغولاً في محاربة اخيه في دمشق عقد صلحاً مع الامير المشار اليه وتنازل له عن القدس وبيروت والناصرية وبيت لحم

وجبل نابور وقسم كبير من الاراضي المجاورة

هذا وبينما الصينيون في ارغد عيش وسرور باسترجاع الاراضي المقدسة دهنهم مصيبة اخرى لم تخطر قط على بال وهي ظهور جنكيزخان الذي اشتهر بين الاكراد في ذلك الزمان . فانه اقام الحرب على ساق وقدم بين طوائف العرب والترك والعجم فازعج تلك البلاد واقلق بغاراته العباد فتراكضت الشعوب والقبائل مهزومة من امام وجهه ومن جملتهم شعوب خوارزم الذين احاطوا بسورية وتغلبوا عليها وقتلوا باها اليها ولم يرحموا شيخاً ولا امرأة ونهبوا بيت المقدس وكادت غاراتهم تصل الى الديار المصرية . وبقي الخوارزميون في سورية ولم يقدروا عساكر المسلمين والمسيحيين على ردهم الى سنة ١٢٤٧ حين قهرهم وكسروهم الملك المظفر سلطان مصر بقرب الشام وطردهم الى تخومهم ومواطنهم التي على شطوط بحر الخزر

واذ كان الصليبيون لا يزالون في ضئلك عظيم تحركت غيرة لويس التاسع ملك فرانس عليهم فنهض اولاً لتجديدهم بعدة سفن مشحونة بالمهمات والادوات العسكرية الحربية مع خمسين الف مقاتل وقصد اولاً مصر سنة ١٢٤٩ للميلاد وهذه هي التجربة الثامنة فوصل الى دمياط وامتلكها ومنها تقدم الى جهة القاهرة ولكن قبل بلوغ اماله انقضت عساكره بالمرض والجوع فوقع هو مع من بقي من جيوشه اسيراً في ايدي الاعداء وبقي في اسرهم الى ان فدى نفسه وسار بباقي رجاله الى فلسطين ومن هناك توجه الى اوروبا . وبعد ذلك بنحو ١٥ سنة زحف الملك الظاهر بيبرس البندقداري احد سلاطين دولة المماليك التركية بمصر بجيش جرار على بلاد فلسطين وكانت الافرنج قد ضعفت قوتها فاخضع مدينتي صفورة وازوث ووقع بالمسيحيين وقتل منهم واسر عدداً كثيراً ثم قصد مدينة انطاكية فحاصرها وامتلكها وقتل منها نحو اربعين الف رجل واسر مئة الف نسمة وساقهم الى البلاد المصرية في حالة الذل والويل

ولما انصلت هذه الاخبار الحزنة الى مسامع شعوب اوروبا ساءهم ذلك
 جداً فتمض ثانية لويس التاسع ملك فرانسوا المقدم ذكره وخرج من بلاده
 بجيش عظيم وقصد اولاً شطوط افريقية لينتقم من التونسيين قبل مسيره الى
 فلسطين لانهم كانوا قد اقلقوا وازعجوا امنية البحر بتواتر غزوات مراكهم
 القرصانية وسلبوا اكثر الدخائر والمهمات التي كانت ترسل من اوروبا اسعافاً
 الى فلسطين حتى انهم كانوا يمدون المصريين بالخيول والرجال . فحاصر مدينة
 قرطاجنة وضيق عليها وهزم جيوشها وانتقمها ولكنه توفي في اثناء ذلك مع
 جانب من جيشه في وسط تلك الرمال المحرقة من جراء امراض وبائية اصابهم
 وكان ذلك سنة ١٢٧٠ وهذه هي التجربة التاسعة والاخيرة للصليبيين

فانحصرت اخيراً فتوحات الصليبيين في مدينة عكا حصنهم الوحيد مع
 بعض المدن المجاورة ولكنهم لم يلبثوا الا قليلاً حتى وافاهم الملك الناصر محمد
 بن قلاوون في جيش من مائتي الف مقاتل وضايفهم في مرج ابن عامر ومن بعد عدة معارك اظهر فيها الصليبيون من
 البسالة والشجاعة ما لا مزيد عليها استظهرت عليهم اخصامهم بكثرة العدد
 واستولوا على مدينة عكا وقتلوا اكثرهم واسروا منهم جانباً عظيماً ثم استولوا على
 جميع اقطار سورية ومن ذلك الحين انحلت اخبار الصليبيين من بلاد فلسطين
 لانهم كانوا قد تلاشوا وانقضوا وكان عدد من مات وقتل منهم في هذه الحروب
 من باب القريب نحو ٢٠٠٠ ٠٠٠ فسبحان المبدى المعيد الدائم والفاعل
 ما يريد

الفصل الحادي عشر

في اسيا الصغرى

اسيا الصغرى المعروفة الآن ببر الاناضول موقعها على اطراف بحر الروم الى جهة الشمال الشرقي مجدها شمالاً البحر الاسود وغرباً بوغاز القسطنطينية وبحر مرمرا وشرقاً سورية وما بين النهرين وارمينية . ومعظم طولها من الشرق الى الغرب ستاية ميل وعرضها اربع مئة ميل يخترقها عدة سلاسل جبال منفصلة عن جبل الثور وجبل قوقاس . وهي الآن قسم من المملكة العثمانية واكثر سكانها من المسلمين واشهر مدنها ازمير وهي مولد هوميروس الشاعر اليوناني المشهور وقاعدة تجارة بلاد المشرق

وكانت تنقسم قديماً الى اثنتي عشرة مملكة صغيرة وهي ميسيا وليديا وكاريا وليسيا ويشينيا وبلفونيا وبنس وبفيليا ويسيديا وكيليكياء وفرجيية وكبدوكية ومن اعظم هذه الاقسام مملكة ليديا اشتهرت قبل المسيح بنحو ٨٠٠ سنة واول ملوكها على ما قيل هوارديس قام سنة ٦٩٧ ق م واخر ملوكها كريسوس وكان اغني ملوك عصره وقد اشتهر في الغنى بهذا المقدار حتى ضرب به المثل الى الآن اذ يقال فلان غني ككريسوس وكان جلوس هذا الملك على سرير الملك سنة ٥٥٩ ق م وفي ايامه ضم الى مملكته جميع البلاد الواقعة غرباً من نهر هاليس الذي يقال له الآن قزل ارمق وكان مجلسه مشهداً للفلاسفة واهل العلم . قبل زاره مرة صولون الفيلسوف الشهير فاراه كريسوس جميع خزانته

ونحنه وقصوره من باب الكبرياء لبهجة وبدهشة وقال له من تظن اسعد
الناس غيري . فاجابه صولون لا بدنى احد سعيدا الا من دامت سعادته الى
آخر حياته . وقد اصاب ذلك الفيلسوف فيما قاله لان كريسوس لم يتمتع بعد
ذلك زمانا طويلا بغناه وسعادته لان كورش ملك الفرس لما زحف لمহারبة
الاشوريين اتحد كريسوس معهم على حرب كورش فانكسروا وبات محصورا في
مدينة سارديس قصة ملكه فاتي كورش وحاصر المدينة وفتحها سنة ٥٤٨ ق م
واسر كريسوس ولما مثل بين يديه امر بايقاد اتون من نار وان يطرحوا
كريسوس فيه ولما دنوا به من الاتون تذكر كريسوس ما قاله له صولون
فصرخ بصوت عال يا صولون يا صولون يا صولون . اما كورش فلما سمع
صراخه استحضره وسأله عن السبب فاخبره بما كان . فاعجبت كورش حكمة
صولون فعفا عنه وابقاء عنده معزا مكرما . ومن ذلك الوقت صارت ليدبا
مع قسم كبير من اسيا الصغرى تابعة لملكة الفرس حتى اتى اسكندر الكبير
فاتصر على ملوك الفرس واستولى على اكثر املاكهم في اسيا

وبعد وفاة اسكندر صار الجزء الاكبر من هذه البلاد تابعا لملكة سورية
في زمان تلك الدولة السلوقدية وفي اثناء ذلك استقلت بنفس التي كانت من
اعمال ليدبا واخذت في التقدم والنمو جملة سنين . وفي عصر تلك ميتريدات
السابع ملكها اليوناني اكتسبت شهرة عظيمة لانه كان على جانب عظيم من
الحذق والدراية واللباس . وكان من اشد الناس عداوة للرومانيين فخاربهم
جملة سنين وانتصر عليهم في جملة وقائع ولكنه قهر اخيرا من الرومان سنة ٦٤
ق م وانضمت مملكته مع باقي ولايات اسيا الصغرى الى املاك المملكة الرومانية
وبقيت تابعة قياصرة رومية والقسطنطينية الى القرن الحادي عشر للميلاد
حين استولت الدولة السلوقية على الاقسام الجنوبية الشرقية من هذه البلاد .
وعند انقراض هذه الدولة في اواخر القرن الثالث عشر جاء الاتراك العثمانيون
من بلاد النزر الكائنة على نواحي بحر الخزر واستولوا على جانب عظيم منها

نحت راية السلطان عثمان الغازي ومن ابتداء سنة ١٤٨٦ صارت كل هذه البلاد تابعة سلاطين آل عثمان . هذا ومع كل الثورات والحروب التي انتشرت في اسيا الصغرى ازدادت البلاد نمواً وشعباً واقام فيها عدة مدن شهيرة منها افسس في ليديا التي لم تزل اثارها باقية الى الآن تشهد على عظمتها وهي على مسافة بعض ساعات من جنوب مدينة ازميز يقصدها كثير من الناس المشاهدة . وكان في هذه المدينة هيكل عظيم الشان حُسِبَ من عجائب الدنيا السبع نظراً لغرابته وعظم بنائه وكان مخصصاً لعبادة الآلهة ديانا اي ارطاميس اليونانيين وفي هذا الهيكل في بهجه وروثه الى سنة ٢٥٦ ق م حين قام رجل من افسس واضرم فيه النار فاحترق عن اخره وكان قصده بذلك ان يترك لنفسه ذكراً مؤبداً وقد ضرب به المثل حيث يقال ان الرجل الذي لا يقدر على صنع قفص خبير حرق هيكله عظيماً . وكانت هذه الحادثة يوم ولادة اسكندر المكدوني

ومن مدن اسيا الصغرى كولاسايس وطرسوس التي ولد فيها بولس الرسول وكانت في قديم الزمان مساوية في العلوم لمدينة اثينا ومناخرة لمدينة اسكندرية وليست الآن الا قرية صغيرة . ثم مدينة برغامس وثياتيرا التي يقال لها الآن اق حصار وسرديس قصة ملكة ليديا . وفيلادلفيا ولاودكية المذكورة في الاسفار المقدسة وتروادة وغيرها . اما برغامس التي يقال لها الان برغاما فكان فيها قديماً مكتبة معتبرة تحتوي على ٢٠٠ الف مجلد نقلها الملك انطونيوس الروماني والملكة كليوبترا الى مصر . وفيها ايضاً ولد جالينوس الطبيب الشهير

الفصل الثاني عشر

في وصف بلاد الهند وتاريخها

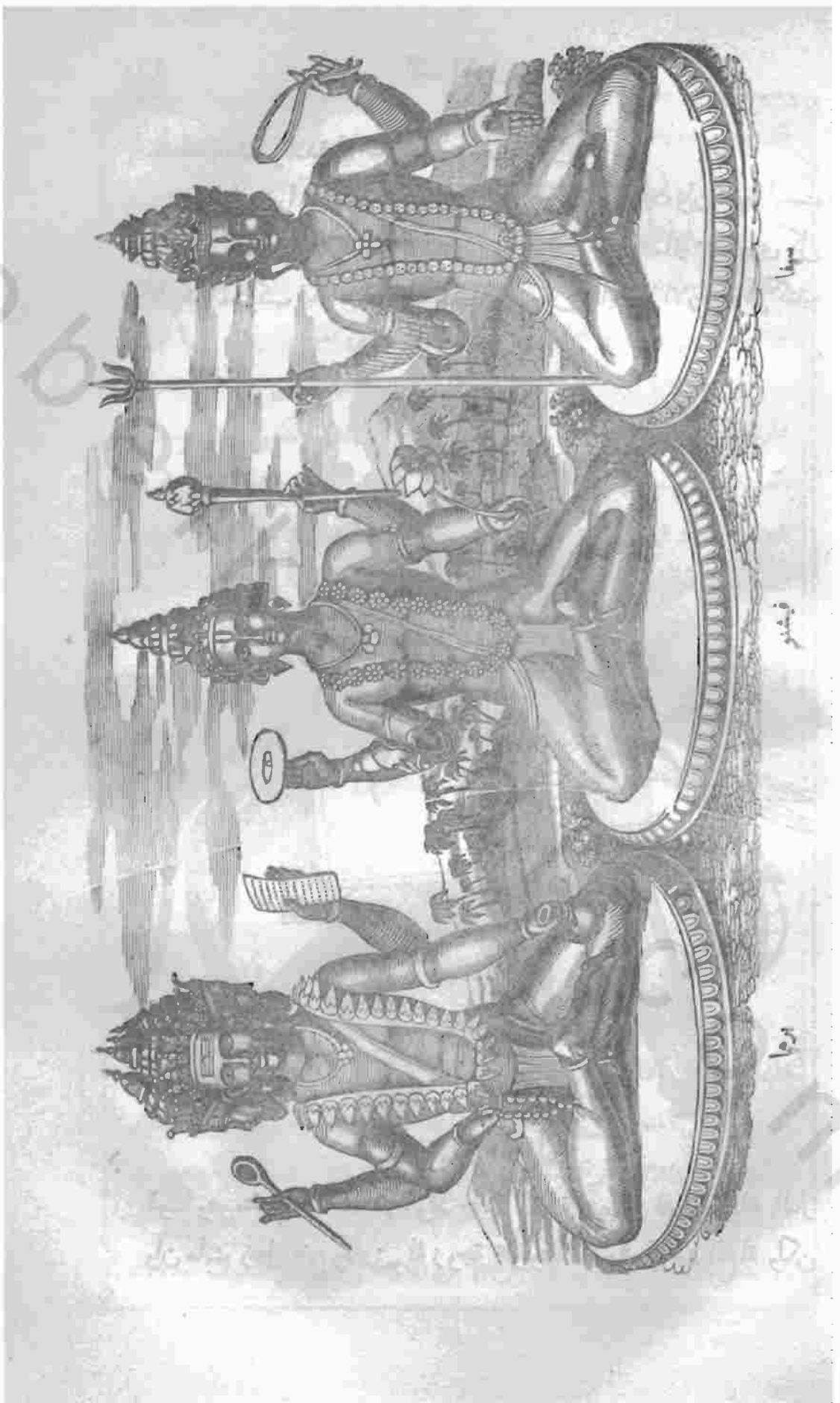
هذه البلاد هي قسم كبير من قارة اسيا وتشتمل على قبائل عديدة منتشرة في كل اقطارها ولكل قبيلة ولاية وحكام مستقلة بذاتها شبه بدول اوروبا وعدد سكانها ٢٠٠ مليون منهم ١٥٩ مليوناً تحت تسلط الانكليز و٤١ مليوناً في حالة الاستقلال

وقد اختلف المعلمون من جهة تسمية هذه البلاد هندياً فزعم البعض انها سميت هكذا نسبة الى نهر الهند والسند وهما كلمتان معناها باللغة السنسكريتية الازرق نسبة الى لون مياهه وقال آخرون ان اسم هند متخذة من كلمة ايندو ومعناها قهر . وذهب بعضهم ان هذه التسمية مقتبسة من كلمة هندو بالفارسية ومعناها الاسود نسبة الى سواد اهلها ولكن قلما يوثق في صحة هذا الاقتباس لانه يصعب التصديق بان امة من الامم تتخذ لنفسها اسماً ولقباً اجنبياً والاجدر بها ان تطلق على ذاتها لقباً مأخوذاً من نفس لغتها . والجغرافيون يقسمون الهند الى قسمين اي هندستان والهند الصينية اما الاول فهو اعظم واشهر وعليه يتعلق مدار الكلام واما الثاني فما كان مجاوراً لبلاد الصين ويتضمن ثلاث ممالك صغيرة وهي بورما وسيام وكوشين ما لا يسعنا الكلام عنه

وفي هندستان انهر عظيمة وجبال مرتفعة ورياض واسعة وهي جيدة التربة كثيرة الحواصل والاشجار واكثر اشجارها نافعة مفيدة وثمارها لذيدة ولاسيما ما

يسمونه مانكو واناناس فانه على ما قيل لا يوجد الذ منها في العالم . و يوجد في هذه البلاد حيوانات كثيرة مختلفة الاجناس ولا سيما الفيل فهو عندهم كالجمال عند العرب . ومن وحوشها الضاربة النمر ويكثر هذا الحيوان في نواحي بنكالا على شواطئ نهر الكنك وهو من اشرس واجسر الكواسر حتى انه يهجم احيانا على الفارس ويخطئه عن ظهر فرسه وكثيرا ما يسطو على الاسد . ثم الكركدن وهو ذو قرن كبير شديد القوة يسطو على الاسد والنمر عند الحاجة اما مدن هندستان فمن اشهرها مدينة كثير وهي قصة بلاد كثير المشهورة بعمل الشالات . ثم مدينة لاهور قصة بلاد لاهور الواقعة بين الهند وافغانستان والعجم . ومدينة سورات وهي اقدم مدن الهند . ومدينة احمد اباد ومدينة الله اباد ومدينة كلكتة وهي قصة بلاد الهند وكري الحكومة الانكليزية وعدد سكانها نحو ٢٥٠ الف نسمة ومدينة بومي وهي فرضة حصينة تملكها الانكليز سنة ١٦٢٩ وعدد سكانها ١٧٠ الفاً وغيرها من المدائن

وللهود اليد الطولى في بعض الصنائع والحسابات الدقيقة واليه تنسب الارقام الهندية المستعملة في العربية . ولهم عوائد قبيحة وخرافات دينية كثيرة والديانة العامة بينهم هي عبادة الاوثان على المذهب البرهي نسبة الى برهم الاله العظيم عندهم الذي منه جاء ثلاثة آلهة على زعمهم الاول برها وهو الخالق والثاني فيشنو وهو الحافظ . والثالث سيفا وهو المهلك وتضع اصنام هذه الآلهة غالبا على ميثاق هذه الصورة ولبرها اربعة اوجه واربع اذرع باربع ايد في يده الاولى جزء من القيدا وهو كتابهم المقدس وفي اليد الثانية ملعقة وفي الثالثة مسبحة وفي الرابعة اناء فيه ماء التطهير . ولفيشنو ايضا اربع اذرع باربع ايد في يده الاولى بوق صدف وفي الثانية الحلقة التي عند ادارتها تخرج منها نار آكلة لا يمكن مقاومتها وفي الثالثة هراوة وفي الرابعة غصن حندقوق . واسيفنا ايضا اربع اذرع باربع ايد في الاولى صولجان وفي الثانية جبل يوثق به المذنبين اما اليدان الاخرتان ففارغان وله عين ثالثة في جبهته وله حبات



متعلقة باذنيه وقلادة في عنقه من رؤوس البشر
 واما هندرا ملك الآلهة عندهم فيظنون ان له الف عين وان عيونه ليست
 كلها في راسه بل متفرقة في كل جسمه وكل عضو من اعضاءه حتى يرى كل
 شيء وانه يركب فيلاً كبيراً ماسكاً في اثنتين من اياديه الاربع وعلى كنفه



هندرا ملك آله الهند

قوساً وهو متقدم لمقاتلة اعدائه . وقد جرت العادة بينهم ان يحرقوا موتاهم بالنار
 وان مات رجل منهم وكان له زوجة يحرقونها معه وهي في قيد الحياة ولكن

قد ابطال الحكم الانكليزي هذه العادة القبيحة ولم تعد تجرسي الأضحية او في
الاماكن التي ليست تحت حكم الانكليز

اما تاريخ الهند فهو من اسفم التواريخ مشحون بالمخافات والاقاويل
البعيدة عن التصديق مما لا يهم القاري معرفته . وكان قد غزا هذه البلاد
سيروستريس احد فراعنة مصر وتغلب على بعض اقاليمها واخذ منها غنائم
وافرة . ثم غزتها بعده الملكة سيرااميس ثم قصدها داريوس هستانسب ملك
فارس واستخلص منها جملة ولايات ثم اتفحمها اسكندر المكدوني سنة وعشرين
الف مقاتل واستولى على جانب عظيم منها . وكان قصد هذا الملك الجبار ان
ينوغل بجيشه في اقطار هذه الملكة ويستخلص جميع ولاياتها وملحقها فلم يوافقه
جنده على ذلك فالتزم ان يرتد راجعا

وقد غزا هذه البلاد ايضا المسلمون . اولاً سنة ٦٤٤ للميلاد ثم سنة ٧١١
في خلافة الوليد واستولوا على بعض ولايات السند . وكان القائد على جنودهم
شاب يقال له محمد قاسم وكان جميل الصورة قوي الجنان ولم يكن معه سوى
سنة الاف فقط من الرجال المعتادين على خوض المعارك فكان يفتي بهم
صفوف الهنود ويشنت عليهم . وحينما انتصر اعرض على الاهالي قبول الاسلام
فمن اسلم سلم ومن امتنع وكان عمره فوق السبع عشرة قُتل اما النساء والاولاد
فكانوا يستعبدون

وما يستحق الاستغراب انه في احدى وقائع محمد الفتاة مرة الهنود بالقرب
من مدينة جيد اباد في خمسين الف مقاتل تحت قيادة رئيسهم الراجا ظاهر
فاشتبك بينهم القتال ومع قلة عدد المسلمين استظفروا على الهنود وقتل الراجا
وايئة ودخل المهزومون الى المدينة وحاصروا فيها تحت رياسة ارملة ملكهم
وبقا محاصرين حتى فرغ زادهم وساءت احوالهم من شدة الحصار ولما يسوا من
السلامة اجتمعوا بنسائهم واولادهم فودعهم ثم احرقوهم بالنار خوفاً من وقوعهم
في ايدي الاعداء وبعد ذلك خرجوا من المدينة وهجموا على صفوف المسلمين

فالتفاهم محمد قاسم بابطاله وفرسانه ولم تكن إلا جولة حتى اخنأهم كلهم وقبض على ابنة ملكهم الراجا ظاهر وكانت من الحسان وارسلها هدية الى امير المؤمنين فلما انتمت بين يديه اعجبته وطلب ان يتزوج بها فقالت له اعلم ايها الامير اني لا استحي ان اكون لك زوجة لان قائد جنودك الذي ارسلني اليك قد اساء معي الادب وفعل بي ما لا يليق فغضب الوليد من قبيح فعل محمد واصدر امراً بان يوفى به اليه ملفوفاً بمجلد ثور ومخيطاً عليه فعند وصول الامر الى المعسكر قبض على محمد قاسم وارسل الى الخليفة على الوجه المذكور وفي اثناء الطريق فارقت الحياة وعند وصول الجثة الى بغداد استدعى الوليد الاميرة الهندية واراما ما حل بمقتضاها ففرحت وانتهجت ثم اخبرت الخليفة بان جميع ما حدثت به في شان محمد قاسم لم يكن له صحة ولكنها فعلت ذلك لتنتقم منه وتاخذ بثأر ابيها ووطنها فتعجب الخليفة من امرها وازدادت رغبته فيها وبعد موت القائد المذكور تجمعت طوائف الهنود وتعضوا بعضهم مع البعض وحاربوا المسلمين واستخلصوا منهم جميع املاكهم وطردهم من بلادهم

وسنة ٩٦٧ للميلاد غزت الاعجام بلاد الهند مرة اخرى تحت راية سويكناجي حاكم ولاية كندهار التي هي ولاية فارسية وعاصمتها غزنة فاتصر على ملك لاهور واستولى على جملة مدائن وضمها الى اراضي افغانستان وبعد موته خلفها لابنه محمود الغزنوي سنة ٩٩٧ ولما تمكن من الولاية حدثت نفسة بالاستقلالية والخروج عن طاعة الاعجام فعصاهم وحاربهم واستقل بولايته وكان ملكاً عالي الهمة شديد الباس غبوراً على دين الاسلام غزا الهند اثنتي عشرة مرة وغنم منها غنائم كثيرة وقتل من اهلها عدداً عظيماً وحمل ثروتها وسكانها الى غزنة حيث كان يبيع الاسير بقيمة ربال . وبعد انتصارات عديدة توفي محمود المذكور سنة ١٠٣٠ وكانت مدة ملكه ٣٥ سنة ونقل خلفاؤه كرسى السلطنة من غزنة الى لاهور وجعلوها عاصمة افغانستان . ثم خلف العائلة الغزنوية العائلة الغورية واشهر ملوكها محمود الغوري وفي ايامه ايضاً امتدت فتوحات الاسلام في الهند

ثم قصد الهند شعوب المغول واخصهم تيمورلنك وخلفاؤه . واشهر ملوكهم محمد
باير زحرف على هندستان سنة ١٥٠٥ وبعد ما اخضع كندهار وكابول ودلي
واغراسس سلطنة الهند المغولية وبقيت في ايدي ذريته الى سنة ١٧٦٠
اما مدة ولاية المسلمين في تلك البلاد من زمن محمد الغزني الى انقراض دولة
المغول فكانت ٧٥٠ سنة وعدد ولايتهم ٦٥

ومن اشهر ملوك المسلمين من العائلة المغولية الملك اورنزيب كان رجلاً
انيساً شجاعاً ذا دراية وسياسة وكان مع هذه الاوصاف ديناً ورعاً زاهداً كثير
الصلاة والصوم استولى على هذه الملكة من سنة ١٦٦٠ الى ١٧٠٧ وتغلب على
كل اقاليمها وجعلها ولاية واحدة وبعد وفاته استولى نسله عليها مدة خمسين
سنة وفي ايامهم غزا نادرشاه ملك الفرس تلك البلاد فاضربها باهلها ضرباً
جسيماً وسلب اموالهم حتى قيل انه خرج منها بنحو عشرة ملايين من الليرات
الانكليزية ما عدا الجواهر والامتنعة الثمينة التي لم تكن اقل قيمة من المبلغ
المذكور . وكان المستولي وقتئذ على الهند من ذرية اورنزيب محمد شاه
فاستدعاه نادرشاه اليه بعد ان كان قد استولى على تلك الغنائم واجلسه على
كرسي الملكة بحضور اشراف الهنود وعظمائهم . ثم التفت بعد ذلك الى الحاضرين
وقال لهم اعلوا اني راحل عنكم الى بلادي فيجب عليكم ان تكونوا في طاعة
ملككم ولا تخالفوا له امراً وليكن عندكم معلوماً اني قد صرت لكم من الآن
وصاعداً محباً وصديقاً فاعتمدوا على كلامي هذا ونحفظوه وكان في اثناء خطابه
لهم ابصر على راس محمد شاه جوهرة ثينة من نفيس الماس (وهي المعروفة
بالكوهينور التي هي الآن في قبضة ملكة انكلترا) فاعجبته وطع في اخذها فجعل
يؤكد لهم مزيد صداقته واستعداده لمساعدتهم ولكي يجعلهم واثقين بكلامه
اراد ان يثبت ذلك العهد بعلامة ظاهرة حسب عوائد الشرق فنزع عمامته
عن راسه ووضعها على راس محمد شاه بعد ان اخذ عن راس محمد شاه عمامته
ووضعها على راسه فكان ذلك التبادل نهاية سلبه

وكان اول من دخل من الافرنج الى بلاد الهند البورتوغاليين سنة ١٤٩٨ وهم الذين اكتشفوا راس الرجاء الصالح ودعوه بهذا الاسم وفي اقل من خمسين سنة صار لهم املاك واسعة ومدائن كثيرة في بلاد الهند ثم امتدوا الى اطراف السند وصار لهم عدة مراكز تجارية في بنكال ولكنهم اذ لم يحسنوا السلوك مع الاهالي مفتوهم واشهروا لهم الاذية والضرر. ولما انضمت البورتوغال الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ وكانت يومئذ اسبانيا مضطربة الاحوال من جهة املاكها الاميركانية اهلكت اللغات الى حفظ املاكها الهندية فكان ذلك من اقوى الاسباب لحسرتها اياها تدريجاً

ثم بعد البورتوغاليين دخل الهنكيون الى الهند في بداية القرن السابع عشر واستولوا على بعض شطوطها واستخلصوا من البورتوغاليين سيلان وكوشين ونيفا بانام وغيرها لكنهم التزموا اخيراً ان يتنازلوا عن اغلب تلكاتهم الى الانكليز الذين دخلوا تلك البلاد من بعدهم

اما بداية دخول الانكليز دخولاً حقيقياً فكان سنة ١٦٠٠ حين تشكلت شراكة تجارية للتجارة في الهند الشرقية وكانت اول اقامتهم في سورات . وفي سنة ١٦٤٠ سمح لهم احد ولاة الهند بنطقة ارض تبلغ مساحتها خمسة اميال مربعة فابتنوا لهم فيها مركزاً ثم اشتروا من وال اخر بعض اراضٍ واقاموا فيها عدة مراكز وكانت هذه المراكز اشبه بخانات اوضع بضائعهم ومتاجرهم وذخائرهم الحربية لانهم كانوا دائماً يحفظون على انفسهم حذراً من غزوات الاهالي والافرنج الاجانب . ولا مر يريد الله حدث في اواسط القرن السابع عشر ان ابنة الشاه جهان في مدينة دلي اخترفت وهي بالقرب من النار فارسل الشاه يطلب طبيباً من الانكليز فارسل اليه جراحاً ماهراً فعاينها حتى شفيت فسأله ابوها ان يطلب منه ما يريد ليكافيه على خدمته فطلب اليه امرأ باعطاء الرخصة للشراكة ان توصل تجارتها الى كل اقطار السلطنة بدون ان تدفع عليها رسماً ثانياً خلاف المدفوع في سورات وان ياذن لها

ايضاً بانشاء مراكز جديدة . فصادف هذا الطلب مزيد القبول وصدرت
الوامر باجرائه من ذلك اليوم . وسنة ١٦٦٢ وهب الشاه جهان المذكور
كارلوس الثاني ملك انكلترا جزيرة بومبي فتنازل عنها الى الشراكة تحت
مبلغ معلوم فنقلوا اليها من سورات وجعلوها مركزهم الاكبر بعد ما اقاموا فيها
حاكمًا انكليزيًا

ومع ان الفرنسيين لم يدخلوا الهند الا بعد الانكليز بخمسين سنة فانهم
في وقت قريب استملكو فيها املاكًا وكانت قوتهم وسطوتهم تنوفات قوة
ونفوذ الانكليز في اول الامر اذ انهم قهرهم اكثر من مرة واخذوا منهم بعض
املاكهم وبقيت في ايديهم مدة حتى استرجعوها فيما بعد . وكان للفرنساويين
مزيد الاعتبار ونفوذ الكلمة بين الاهالي اكثر من غيرهم من الافرنج لانهم كانوا
يتدخلون في امورهم الداخلية ويتواسطون فض مشاكلهم ويخربون في اغراضهم
فكانت الاهالي تودهم وترغب في مصاحبتهم ولكن بعد ملاقات الانكليز للهنود
في حرب بلاسي واستظهارهم عليهم بثلاثة الاف مقاتل تحت قيادة الرئيس
كلايف فيما كان عدد الهنود خمسين الفا ارتفع شأنهم بين الاهالي ووقعت
هيبتهم في قلوب الجميع فكان نجمهم في صعود فيما كان سعد الفرنسيين
في هبوط وسقوط ولاسيما بعد انتصارهم عليهم في ١٢ ك ٢ سنة ١٧٦١ واسرهم
حكمادهم موسيولالي واستيلائهم على بوندشيري عاصمة مدنيهم التي ارجعوها
لم عتب وقوع الصلح . فمن ذلك الوقت تناقصت السطوة الفرنسية في
بلاد الهند واخذت شوكة الشراكة الانكليزية تنقوى شيئًا فشيئًا حتى استولت
على الجانب الاكبر من بلاد الهند وصارت ذات اهمية عظيمة . فما اضاءت
انكلترا في القرن الثامن عشر من املاكها الاميركانية استعاضت في الوقت
ذاته من بلاد الهند ولكن بعد مشقات كثيرة ونفقات وافية لان القوت
الداخلية كانت بلا انقطاع وعصيان الاهالي كثيرًا ما زعزع اركان الشراكة
واستمرت حكومة الهند في ايدي الشراكة الى سنة ١٨٦٠ حين استلمت

زمائها الحكومة الانكليزية وهي الآن في يدها ونحت تصرف احكامها ويراها
السوي يعادل ايراد انكلترا الذي يجاوز سبعين مليون ليرة انكليزية

الفصل الثالث عشر

في باقي مالك اسيا

كان كلامنا في ما سبق على اشهر دول اسيا وما لكها واذ وجد ايضا عدة
مالك في هذه القارة راينا ان نتعرض لذكرها بوجه الاختصار فنقول . من
جملة هذه الممالك طوائف السكثيين اقاموا في الجهة الشمالية من اسيا وكانوا
شعوباً متوحشين انصفوا بالقوة وشدة البأس ولاسيا رعي النبال وقد توغلت
جموعهم في جهة الجنوب وافتتحو عدة ممالك في تلك الاطراف واستولوا عليها
وقد اجتمع كثير من ملوك اوروبا واسيا ان يدخلوا هؤلاء القوم تحت الطاعة
والانقياد فاقاموا عليهم حروباً كثيرة ولم ينجحوا . ومن هذه الامة تكونت مملكة
الفريثيين التي امتدت سطوتها فيما بعد الى بلاد فارس وغيرها من الممالك
واستمر حكمها نحو خمس مئة سنة وذلك من سنة ٢٥٠ ق م الى سنة ٢٥٠ بعد
المسيح

وعلى نوالي الايام سميت اراضي السكثيين بلاد التندوهم شعوب كثيرة
متفرقة ولكنهم ليسوا احسن حالة مما كانوا عليه في الايام السابقة وهم ينقسمون
الآن الى ثلاثة اقسام . القسم الاكبر منها في الاقسام الشمالية من اسيا وهو تحت
تسلط المسكوب وطوائف متعددة يجولون بين تلك البراري الشاسعة وليس

لنا من امرهم تاريخٌ يذكر والقسم الاوسط تحت حكم الصين واما القسم الاصغر
فدو حرية واستقلال لا يتسلط عليه احد وهو المعروف ببلاد التتر المستقلة
واهلها من قبائل مختلفة وكل قبيلة منها يتسلط عليها امير جنسها واما ديانتهم
فمنهم مسلمون وشيعة يضاهون العجم مذهباً

وقد اشتهر من رجال هذه البلاد جملة اشخاص يستحقون الذكر منهم ترموجين
الذي سمي جنكيزخان من قبيلة المغول كان ابوه حاكماً على بعض قبائل
تتريه عند شاطئ نهر سلتيكما يبلغ عددها ٢٠ او ٤٠ الف عائلة وبعد وفاة ابيه
سنة ١١٦٤ اظهرت الرعايا العصيان فنهض جنكيز لخارجتهم وهو يومئذ ابن
١٢ سنة واخذ يخضعهم شيئاً فشيئاً حتى تغلب عليهم جميعاً فعظم امره واكتسب
شهرة عظيمة ونودي باسمه خاناً على المغول والتتار وسي جنكيز خان الذي
تفسيره خان الخانات ومن جملة حروبه انه غزا بلاد الصين الشمالية وافتتحها ثم
زحف بسبع مئة الف مقاتل من المغول والتتار على بلاد الاسلامية فاجتحمها
وخرب مدنها وامدت غزواته من ولايات العجم الغربية الى شطوط نهر الفولكا
واقصى سواحل بحر الخزر. وكان جنكيزخان المذكور اشد قسوة من سيفه
وخلفه من الملوك الظالمين وما يحكى عنه انه امر مرةً بقتل مئة الف رجل من
اسراؤه في يوم واحد وينسب اليه هلاك ١٤ مليوناً من الجنس البشري الذين
قتلوا بحروبه وغاراته المتتابعة. وقام بعد جنكيزخان اولاده الاربعة فخابروا
ما لك اسيا وافتحوها تقريباً ووصلوا فتوحاتهم الى قسم كبير من اوروبا ولاسيا
كولي خان حميد جنكيزخان فانه كان قد اكمل افتتاح الصين وقرض
منها فضلات العائلة الملكية الصينية ثم بنى مدينة باكين وجعلها عاصمة المملكة
واخضع بنكال وتبيت وضرب على اهلها الخراج. ومن ذرية جنكيزخان
الملك هلاكو الذي قلب سلطة الخلافة الاسلامية وخرب مدينة بغداد ثم
غيره من الملوك الذين اخضعوا كثيراً من البلاد الاوروية بواسطة قواد
جيوشهم ولكن لم يرض كثير حتى ان تلك القواد خلعت طاعة ملوكها واستقلت

في الولايات التي افتتحتها ورفضت العبادة الاصنامية وعوائد المغول والصينيين
القبيلة واعتمدت الديانة الاسلامية

ومنهم ايضا تيمور لك اي تيمور الاعرج ولد في مدينة القش بالقرب من
سمرقند من اعمال بخارا سنة ١٣٣٦ وكان نسبه متصلاً بجنگيزخان من النساء
ولما اشتهر امره اقام عه والياً على احكام القش وسار لافتاح الممالك واخذ
حينئذ يتقدم شيئاً فشيئاً حتى ساد واستولى على كثير من الاقطار . وسنة ١٣٧٠
سعى نفسه خائناً واخضع مدينة خوارزم وقشغر وجميع اطراف اسيا شرقي بحر
المحزر ثم تغلب على بلاد ايران وما يليها ومنها تحول الى روسيا فتهب مدينة
ازوف وهدمها ثم زحف بجيوشه الى الهند واجتاز السند وحارب الملك محمد
الرابع تحت اسوار مدينة دلي فهزمه وامتلك المدينة مع باقي الولايات التابعة
لهام قصد بلاد سورية سنة ١٤٠٠ وافتتح حلب والشام وسائر المدن الشامية
واستخلصها من يدي سلطان مصر ثم سار الى بغداد سنة ١٤٠١ فحاصرها وهدم
ابراجها ووقع باهلها . ولما تهدت له ولايات تلك البلاد نهض لمهاجرة بني
عثمان فحاربهم واستولى على امصارهم وقواعدهم واسر السلطان يازيد في حرب
دموية جرت بينها في اخرة سنة ١٤٠٣ وسجته في قنص من حديد ومن هناك
حول وجهه الى الشرق قاصداً بلاد الصين بمئة الف مقاتل ولكنه مات على
الطريق سنة ١٤٠٥ ومن اعماله القبيحة انه امر باحراق مدن كثيرة منها الشام
وبغداد ودلي وفي هذه المدينة امر بمخني مئة الف من الاسرى وغير ذلك من
الاعمال الفظيعة

ومن ممالك اسيا مملكة يابان على الجهة الشرقية من بلاد الصين هي
مجموع جزائر في الاوقيانوس المحيط اعظمها جزيرة نيفون وعدد سكان هذه
المملكة نحو ٢٦ مليوناً وهم في الاصل صينيون هاجروا بلادهم في الازمنة السالفة
بسبب مغازي النار وجور المغول واستوطنوا في هذه الجزائر ولذلك يشبهون
اهل الصين في الهيئة والعوائد والدين . ومن اعظم مدنها مدينة يدو وهي قاعدة

السلطنة وليس لبيوتها الا طبقة واحدة او طبقتان فقط بسبب الزلازل وميناؤها
غير عميق لا يمكن للسفن ان ترسو الا على بعد خمسة فراسخ ومحيط ببلاط
السلطان جدران من الحجر وخنادق وقناطر توضع وترفع عند الحاجة ومحيط
ذلك البلاط خمسة فراسخ كل فرسخ مسير ساعة وبها ديوان طولة ست مئة
قدم وعرضه ثلاث مئة ولها برج مربع سقفه من خشب الارز والكافور وهو
مزين بشعائير مذهبة وتماثيل مزخرفة وفرشة منحصر في حصر يضاء مزينة
بالفرش والمساند المشغولة بالذهب

واهل يابان بوجه الاجمال حسان المنظر وعندهم سهولة في حركاتهم
وبينهم قوة ليسوا بالطوال ولا بالقصار ولونهم بضرب الى الاصفرار واحيانا
يميل الى السمرة ونساء اكابرهم لا يتعرضن للهواء والشمس من غير قناع . واصناف
الاهالي بوجه العموم تتأخر عن غيرها من الناس بعيونها فان شكل عين الواحد
منهم يبعد عن الاستدارة فتكون العين مستطيلة صغيرة في الراس واجنان
عيونهم مشقوفة شفا عميقا واهدايم اعلى من مكانها المعتاد عند غيرهم . واعظم
عريض الراس قصير الرقة غليظ الانف كانه مجدوع وشعورهم سوداء كثيفة
براقة وهم يحلقون نصف شعر رؤوسهم والباقي يرفعونه الى وسط رؤوسهم على
شكل العفريه (الشقطية) بخلاف الصينيين ويأثرون في اسفارهم بمآزر ضخمة
من ورق مدهون بالزيت . وتجنبهم عبارة عن انحنائهم عدة مرات كالركوع .
ويحملون في ايديهم المراوح ويفتخرون بشدة تدقيقهم في النظافة . ومن عوائدهم
انهم يحرقون اجسام الموتى من اعيانهم ويشهرون عيدا يسمى عيد المصابيح كما
يقع ذلك في بلاد الصين وانهم يضيفون اليه زيارة الثور في اوقات معلومة .
والامر مجهول هل عرف الاقدمون شيئا عن احوال هذه الملكة ام لا لان
التواريخ لا تنبئنا عنها شيئا وفي وجودها مجهولا للناس الى سنة ١٤٠٠ للمسيح
حين اكتشفها الاوروبيون ولكن اذ لم يسمح للاجانب ان يدخلوها الا حديثا
كانت معرفتنا بها قليلة . والظاهر انه قد دخل هذه البلاد مؤخرا بعض

التنوير لان ملكها شارع الآن في تحسين حالها واصلاحها وملتفت جداً الى ترقية اسباب المعارف والصنائع فيها وقد استجلب عدة معلمين ومهندسين من اميركا وفرنسا لفتح المدارس ونظم المعامل على اختلاف صنوفها وغير ذلك من الامور المتعلقة ببحاج البلاد

ومن ممالك اسيا ايضاً ارمينية وكانت في الازمنة القديمة مملكة عظيمة الشأن يبتدي تاريخها من بعد الطوفان بزمن يسير مؤسسها يافث بن نوح ومن اشهر ملوكها الملك هايكوس ثم ارمانياك ثم ارمابوس ثم آرام ثم الملك ابكاربوس المعروف بالابجر الذي كان في عصر المسيح واستمرت هذه المملكة في زهوها وعزها نحو الف سنة ثم تغلب عليها الماديون والفرس ثم اسكندر الكبير وبعد وفاته تسلط عليها السريان الى ان تغلب عليها وزير الانطيوخوس الكبير اللذان قاما على ملكها وخلصا طاعته وعصياه سنة ٢٢٢ ق م قسما المملكة بينهما الى قسمين فالتقسيم الواحد كان يدعى ارمينية الكبرى والآخر ارمينية الصغرى. وبعد ذلك بزمان تسلط عليها الرومانيون والعجم سنة ١٥٢٢ مسيحية ثم تسلط عليها آل عثمان ولم تنزل خاضعة لهم الى الآن

ومن هذه الممالك تركيا في اسيا وسياقي ذكرها منصلاً ان شاء الله تعالى عند ذكر دولة آل عثمان في اوروبا. وفي قارة اسيا ايضاً عدة ممالك غير هذه لم تعرض لذكرها لعدم شهرتها كمملكة سيام وكوشن وبرمن وكابول وبلوخستان وغيرها من البلاد التي لانهم معرفتها. وفي الاقسام الشمالية من اسيا تسكن طوائف من التتر التي يجولانها بين تلك البراري المتسعة في تلك القرون الماضية لم تترك لنا تاريخاً واضحاً واما الآن فهي تحت تسلط دولة المسكوب